مها حسن

الراويات

رواية

التنوير

مها حسن

الراويات

الكتاب: الراويات/ رواية
المؤلفة: مها حسن

عدد الصفحات: 192 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-44-3

الطبعة الأولى: 2014

جميع الحقوق محفوظة ©

الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت – الجناح – مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري – الطابق الثاني – هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: beirut@dar-altanweer.com

مصر: القاهرة – وسط البلد – 8 شارع قصر النيل – الدور الأول – شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

رقم الناشر: 14/447-53

مها حسن

الراويات

رواية

في البدء كانت الحكاية.

الإهداء

إلى فيليب أدوار Philippe Adouard، الرجل الذي عاشت معه راوياتي، وانتعشت، من دون قلق شرط الوجود.

إلى النساء الحكواتيات في بقاع الأرض، اللواتي لم تساعدهن الحياة، على نشر رواياتهن على الملأ، فعشن ومتن في الظلمة.

أعيش حياتين، حياة الواقع اليومية، بنمطيتها واحتياجاتها، وحياة الكتابة غير المتحقّقة أحياناً، كما لو أنني آلة كاتبة، أو كيبورد، يقوم بتدوين كل العالم الداخلي. حياة غنية كثيفة تعادل عشرات حيوات الحياة الخارجية، المرئية.

«عشت لأروي» يقول ماركيز، معبراً عن كثافة عيش الروائي، المتلخّصة في الروي. «خُلقت لأروي»، أقولها، وأنا أعيش داخل الرواية، أصطحب أبطالي معي أينما حللت، أتلصص على العالم، بهدف اقتناصه وتحويله إلى إكسسوارات في كتابتي، أشخاص وأماكن وروائح وألوان وأطعمة.

مقلّدة جدّي، الذي كانوا يسمونه أبو القراقيع، لأنه كان يلمّ كل ما يراه في طريقه، على أنه «بيلزم». و«القرقوعة» هي الشيء التافه، بالمعنى الشعبي، الذي لا قيمة له، لكن جدّي، كان يعتقد بأن كل شيء، قد يكون له مكانه المهم.

أكياسُ جدّي العجائبية، كانت تحتوي أغراضاً متناقضة: مسماراً، قطعة خشب، قطع تبديل لغسالات أو ثلاجات أو ساعات. كان جدي مهووساً بضرورة، أنه حين يتعطّل أي شيء في البيت، يجد لديه ما يمكنه استعماله كقطعة غيار.

أبي أيضاً، بطريقته، ورث هوس إصلاح الأشياء، من دون أن يجرؤ على التنازل لالتقاط المرميات في الشارع، بل كان يفكك الأغراض التالفة، ليأخذ منها ما يعتقد بأهميته لاحقاً، في أشغال التصليحات المنزلية، التي يمارسها متطوعاً.

وأنا وريثة الاثنين، مهووسة بتفكيك العالم وإعادة تركيبه، أقتنص حكاياتي من حولي. في مخبر التحليل، منتظرة دوري، أتأمل الوجوه، (هذه لا تنفع لتكون شخصية روائية)، أحذفها من رأسي، (هذه العجوز تشبه شخصية جدة شاهناز في روايتي التي أكتبها الآن، سآخذ روحها)، وهكذا، أسجّل تفاصيل هؤلاء الذين سينفعونني.

آخذ أرواحهم معي، من دون أن يعرفوا، أعمل منهم نسخاً صغيرة وأخبئها في منجمي الصغير. أجمعهم من الشارع، من المترو، من المقهى، من الفيسبوك، من السهرات والاحتفالات والمناسبات الكبيرة، آخذ قطعاً منهم، عين من هنا، نظرة من هناك، لمسة من هنا، ابتسامة من هناك. أضعهم في منجمي، أصهرهم داخل مخيلتي، فيخرجون كائنات جديدة، لا تشبه النسخ الأصلية، لأن أصابع الكتابة، تتدخّل في تعديل التفاصيل والملامح، كمفكّ أبي، الذي يثبّت برغياً يأخذه من قطعة ما، ليضعه في قطعة أخرى.

أسرق هذا العالم، كما كان جان باتيست غرونوي يسرق رائحة أجساد النساء ليصنع عطره، أقتل العالم الخارجي، لأعيد خلقه إبداعياً، في عالم يُكتب له الخلود أكثر، حيث مدام بوفاري صارت أهم من فلوبير، وأنطوان روكانتان أهم من سارتر، وراسكولنيكوف أهم من دوستويفسكي، وغيرهم من الأبطال، الذين تتجلّى أهميتهم، في كونهم لم يكونوا من لحم ودم وصناعة إلهية، بل أبطال على ورق. صنعتهم مخيلة إنسانية، منحتهم احتمالات أن يكونوا بصيغ متعددة في رأس

القارئ، وعلى شاشة السينما ربما، ليحيوا حيوات متعددة، لا حياة واحدة محصورة بتاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة. يعيشون في الرواية، ذلك المنجم الذي يخلق حيوات الآخرين المتعددة. المنجم ذاته، يحوي طبقات متعددة من بشر وحكايات وأمكنة، تحيا داخله. طبقات هائلة من حيوات الواقع المتراكمة، يُنهيها الموت، الذي يعجز عن أن يُنهي حيوات أبطال الروائي.

حياة واحدة لا تكفي الروائي.

كثير من مشاريع المناجم، التي يشتغل عليها العمال، سنوات وسنوات، لا تفضي إلى نتائج ملموسة، سوى سنوات الحفر والنحت والحتّ. ثمة من يموتون ولا نعرف عن أعمالهم أي شيء. حياة الروائي هكذا، كعمال المناجم، يشتغل لسنوات، ويموت قبل أن يُكمل مشروعه، آخذاً أبطاله وحكاياته معه. هل يأخذهم ويتسلّى معهم هناك؟ هل يتابعون الكتابة، أو يتبخّرون جميعاً: الروائي والروايات؟ لو أنّ أحداً من الروائيين، عاد يوماً، من هناك، وروى لنا ما فعله بأبطاله وحكاياته.

لكن لا أحد يعود من هناك.

الرواية الأولى

جلد الحيّة

في كل ليلة، قبل أن أغفو، وما إن أطفئ النور، حتى تبدأ الحكاية. في كل ليلة يختلف الراوي أو الراوية، وتختلف الحكاية.

أحياناً يخطر ببالي أن أضيء النور، لأكتشف شخص الراوي أو الراوية، ولكنني أتذكّر ذلك التحذير الأزلي العالق في ذاكرتي، عن قصة الصبية التي أحبها كائن غامض، وألحّ عليها، إن رغبت باستمرار حبهما، ألاّ تحاول إضاءة النور حين يأتي. ذات ليلة، لم تتمكن الصبية من مقاومة رغبتها في رؤية وجه حبيبها، الذي أخبرها بأنه يحمل رأس جمل. بحسب ذاكرتي التي تخونني، وتخبرني في كل مرة، حكاية مختلفة لحقيقة الحبيب. الصبية التي أضاءت شمعة، شهقت وهي ترى أجمل وجه في العالم. سالت نقطة شمع ذائبة على وجه الحبيب، الذي ما إن أفاق، حتى اختفى إلى الأبد، وظلت الصبية محرومة من حبيبها، تعاني الندم والحزن والفراق، إلى أن ماتت كمداً.

هذه الحكاية، تمنعني من إضاءة النور محاولةً أن أرى وجه الراوي

أو الراوية، الذي لا يتكرّر في أي ليلة، إذ في كل ليلة، راوٍ أو راوية جديدة.

وأحياناً، أستغرق في جمال الحكاية، فأنسى ذلك الخاطر، إلى أن أنام. فأنام في قلب الحكاية.

ويحدث أيضاً، أنه في الصباح، حين أفيق، أسمع حكاية أخرى إما حكاية جديدة، أو مشاهد، أو مقاطع، من حكايات سابقة. من دون أن أرى راوي الحكاية.

حين أمشي، أشعر بأنني مسكونة برواياتي، بشخوص، وبحوادث كثيرة لم أعشها، ولم أقرأ عنها، وحتى لم أرها في السينما مثلاً، أو في التلفزيون، فكأنني قارورة تُخزّن فيها الحكايات، أو برميل قديم في مخزن، كبرميل النبيذ، أو الزيت، يملأونه بالحكايات، ويغطّونه جيداً حتى لا تتلف الحكايات أو تطير أو تُسرق أو تخرج بطريقة ما.

أنا هذا البرميل والقارورة والمخزن. كيفما تحرّكت سمعت أصواتاً من داخلي، ورأيتني، كأنني شاشة تعرض أفلاماً بلا توقّف. حتى في أثناء نومي.

ألوان، روائح، شوارع، لوحات ضوئية، أسماء محال، مقاهٍ، حدائق.. كل هذا العالم، وبشكل موازٍ، ومكثّف، للعالم الخارجي، للمدن والجغرافيا، يحدث في داخلي.

وفي كل صباح، أكتشف وجبة جديدة، أستعيد ما مررت به في الليل، لاأعرف إن كانت أحلاماً! كلا، ليست كذلك. إنها أشياء حقيقية. أو ستصبح كذلك حين أضعها على الورق. إنها أماكن وصحارى وجبال، وبشر. يخرجون من الذاكرة أو يأتون من بعيد. يأتون من التاريخ أحياناً. أو يستعيدون حياةً افتقدوها فيعيشون في الحكاية. هكذا يعيشون الى

الأبد، بشرٌ طيّبون وأشرار، رجال ونساء. خاصة نساء، أسمع حكاياتهنّ، وأتمنى لو أراهنّ. نتصادق ونفرح ونبكي ونلهو. نحسّ بحريّة لا تُتاح لنا في الواقع. نعيش من دون أسرار. نكشف حياتنا، عشقنا، رغباتنا.. شَبَقنا.. كل ما كنا نخجل منه. فالحكاية نرويها عن غيرنا. حتى لو كنّا أبطالها، ولو سردناها بضمير الأنا فإنها حكاية، ونستطيع أن نتلطّى خلفها لنقول ما لا نجرؤ على قوله..

لقصص الصباح طعم مختلف، طازج. ما أحلى الكتابة في الصباح، إلا أنني مضطرة للذهاب إلى العمل.

- 1 -

أجلب العالم إلى غرفتي

لم ينتبه إليّ حين اتجهت فور دخولي من الباب الواسع، صوب مكتب مراقب الدوام، لتسجيل ساعة وصولي إلى العمل.

ومن الحركة الخفيفة الناعمة المتأنّية التي قمت بها وأنا أزيح شالي المرقّط عن عنقي، لأضعه بجواري، فوق حقيبة يدي البنية الكبيرة، حيث يمدّ الكتاب جزءاً من غلافه. مركّزة في سجل التوقيع، أدوّن توقيت وصولي، بالساعة والدقيقة: الثامنة وثلاث وعشرين دقيقة. يدي اليمنى تمسك بقلم التوقيع، واليسرى تسترخي فوق الشال المرقّط والحقيبة، خشية انزلاقها، كما يحدث غالباً، واندلاق محتوياتها.

فأنا مُغرَمة بالقراءة في كل مكان، أوّل شيء أفعله قبل خروجي في الصباح، أن أحشر كتابي في محفظتي. أسحبه لأقرأ حين أدخل مكاناً ما، أو أتوقف عن القراءة لأني أغادر إلى مكان آخر. قلّما أغلق حقيبتي، أنساها مفتوحة، وغالباً ما آتي بحركة عشوائية، فتندلق محتويات حقيبتي.

"سبع دقائق وأُغلِق الدفتر".

قال مراقب الدوام.

نظرت إلى ساعة يدي وأجبته:

" ولكن سبع دقائق هي زمن أيضاً. في دقيقة واحدة ممكن أن يتغير وجه العالم".

لم أتوقع أن يستطيع أحد قراءة عنوان الكتاب المدوّن على الكعب الفاصل بين دفتي الكتاب، والذي يبدو من داخل الحقيبة المفتوحة، إلا إذا كان دقيق النظر ويعرف الكتاب جيداً.

من هذه اللحظة، من حركة يدي تزيح الشال المرقّط (جلد الحيّة)، ويدي التي تداعب من دون انتباه، غلاف الرواية التي في حقيبتي، من هذه اللحظة، ستبدأ أحداث هذه الرواية.

سحبت شالي المرقّط بلطف، ودسسته داخل الحقيبة المفتوحة، وهبطتُ في المصعد.

كان يراقب أزرار المصعد. بعد نصف ساعة تقريباً، أخذ المصعد، وهبط به إلى المستودع، حيث توقف بي، وحيث أعمل.

كنت منهمكة في تفريغ صناديق الخراطيم الجديدة التي وصلت المستودع ليلة البارحة في نهاية الدوام، ولم أتمكن من ترتيبها.

أتسلق السلّم الحديدي، أصعد وأهبط، لأرتب الخراطيم في الرف الثالث، سمعت صوت خطواته.

وقف أمامي بسيجارته، نظرت إليه وأنا أعلى السلم، وشعرت بدوار مفاجئ:

ـ التدخين ممنوع هنا، ألا تقرأ.

أشرت بإصبعي نحو لافتة كتب عليها: ممنوع التدخين، مواد قابلة للاشتعال.

رمى سيجارته على الأرض وداسها بحذائه. فقفزت عن السلّم بحركة سريعة والتقطتُ عقب السيجارة. كاد السلّم يسقط فوقي:

ـ ما هذه الفوضى، ألا ترى أن الأرض نظيفة!

ـ هل نحن في مشفى؟

قال ساخراً ثم أضاف:

ـ لكنني لم أر أي منفضة!

ـ قلت لك إن التدخين ممنوع!

وضعتُ عقب السيجارة في كيس القمامة، في الركن الصغير المفصول عن مكتبي بستارة سوداء، وعدت لأفتح صندوقاً جديداً من البضاعة وأرتّب محتوياته في الرفّ الثالث.

ـ أنت تعملين هنا؟

ـ ماذا ترى؟

أجبته باقتضاب مستغربة وجوده أمامي. عادة لا يدخل هذا المكان سوى عمال نقل البضاعة من المستودع وإليه.

ـ وحدك؟

ـ أترى أحداً غيري؟

ـ لماذا تجيبين عن السؤال بسؤال؟

ـ ولماذا تسأل بسذاجة؟

ـ ضايقتك؟

ـ لا أفهم ماذا تفعل هنا؟

ـ رأيتك فوق منذ قليل، أحببت أن أعرف طبيعة عملك.

ـ أعمل في المستودع، كما ترى. من أنت؟ ماذا تريد؟

ـ أيهمّك؟

ـ أنت عندي، في مكان عملي، أنا مسؤولة عن هذه الأغراض.

ـ هل تخافين أن أسرقك؟

ـ لا، لا تستطيع أن تفعل، كاميرات المراقبة مزروعة في كل مكان، تسجّل كل التفاصيل.

ـ أين يمكنني أن أدخّن؟

ـ نزلت هنا كي تدخن؟

ـ كلا، بل نزلت للتحدث إليك، لكنك لا تكفّين عن الحركة صعوداً وهبوطاً مع هذه الأكوام.

ـ هذه خراطيم. إنها بضاعة، وهذا عملي.

ـ لا يهمني.

ـ لماذا تريد التحدث إليّ؟

ـ لا أعرف.

ـ هل تعرفني؟

ـ أريد أن أعرفك.

ـ أنت غريب.

ـ وأنتِ أيضاً.

ـ هل تظن أننا في مسرحية عبثية؟

ـ هل تحبين بيكيت؟

ـ كلا.

ـ تفضّلين أرنستو ساباتو.

هنا فقط، أمام هذه العبارة، توقفت عن الصعود والهبوط، ونظرت إليه. نظرت إليه للمرة الأولى، نظرت في عينيه، ولأول مرة في حياتي، أرتبكُ على هذا النحو أمام عينيّ رجل.

ـ رأيت الكتاب؟

ـ كان داخل الحقيبة.

ـ لمحت العنوان؟

ـ من داخل الحقيبة.

ـ حقيبتك مفتوحة، وكان نصف الغلاف إلى الخارج.

ـ تعرف الكتاب؟

ـ أحب ساباتو كثيراً.

ـ ماذا تريد؟

ـ أن أدخّن.

ـ تصرّ على التدخين هنا؟

ـ نعم.

ـ انظر (فتحت ذراعيّ مستعينة بهما) المكان مليء بالزيوت والشحوم والمواد القابلة للاشتعال.

ـ ألا يوجد ركن نستطيع أن ندخّن فيه بهدوء؟

ـ أنا لا أدخّن في العمل.

ـ أنا بحاجة إلى سيجارة.

نفضت يديّ من غبار الصناديق والخراطيم، مسحتهما بتنورتي، وطلبت منه اللحاق بي.

فتحت باباً يطلّ على فسحة مربّعة، تطل بدورها على أرض خالية.

ـ هنا، تستطيع أن تدخن.

قبل أن أتركه وأدخل، أمسك بذراعي:

ـ ابقي معي.

ـ أشعر بالبرد هنا.

ـ لن أبقى وحدي.

ـ سأجلب معطفي.

دخلت أجلب المعطف، وأنا أشعر كما لو أنني أقوم بدور مسرحي. تنتابني هذه الحالة أحياناً. أشعر بأنني أفعل أشياء من خارج الواقع، أتصرف وكأنني نائمة، أو غائبة عني، لا أسيطر على سلوكي، وكأنني أستعير جسدي، بينما عقلي في مكان آخر. أتحدث إلى كائنات غير موجودة، أسمع أصواتاً تثرثر معي، تهمس لي. لا وقت أمامي الآن للتفكير، مضطرّة للتصرّف بحسب الموقف، وسأفكّر لاحقاً، بمن يكون هذا الرجل، من أين أتى، وهل هو واقعيّ حقاً، هل أطفأ سيجارته في أرضية المخزن؟ عليّ أن أسرع إليه الآن، قبل أن تنتهي سيجارته. لا أعرف لماذا "عليّ أن أسرع إليه"؟ لماذا أحسّ بهذا الفضول؟

ـ أنت زبون في هذه الشركة؟

ـ كلا

ـ تعمل في الشركة؟

ـ كلا.

ـ ماذا تفعل هنا إذًا؟

ـ ظروف جاءت بي، أشرحها لك في ما بعد.

ـ أنت لا تعمل في السيارات إذًا؟

ـ كلا، أنا محامٍ.

ـ مهنة جيدة.

ـ ربما.

ـ ألا تحبها؟

ـ ليس كثيراً، وأنت، أتحبين مهنتك هنا؟

ـ هذه ليست مهنتي!

ـ كيف؟

ـ إنه عمل لكسب العيش، وليس العمل الذي أحب.

ـ وما هو العمل الذي تحبين؟

للمرة الثانية، نظرت إليه، نظرت في عينيه، وللمرة الثانية ارتبكتُ أمام نظرته، أنا التي لم أرتبك يوماً أمام عينيّ رجل. مددت يدي نحوه طالبة سيجارة، فهذا هو الحديث الأغلى إلى روحي، الآن، أحتاج سيجارة.

ناولني سيجارة من دون استغراب، كأنه يتوقّع كل ما أقوم به، كأنه يعرفني. أهذا جزء من النص المعدّ مسبقًا؟ أشعل لي السيجارة، مقترباً مني، أنفاسه ترتطم بأنفاسي، تحوّل قلبي بغتة إلى عصفور يرتجف بين ضلوعي. قلت بثقة وقوة، وأنا أنفخ الدخان من صدري:

ـ لو أُتيح لي أن أختار المهنة التي أحبها لاخترت الكتابة.

ـ أي نوع من الكتابة؟

ـ الرواية!

ـ لهذا تقرأين ساباتو؟

أخذت نفسًا جديدًا من السيجارة، اقتربت منه، أسندت رأسي إلى الجدار على مقربة منه، أكاد ألتصق به، كأنني أهمس له، قلت:

ـ أشعر أحياناً وكأنني خارجة من كتاب.

لم يبتسم ولم تبدُ عليه أمارات الدهشة:

ـ يحدث هذا أحياناً.

ـ أيحدث لك؟

ـ كلا، ولكنني سمعت عن أشخاص حدث هذا معهم.

ـ أنا لم أسمع أو أقرأ عن هذا.

أطفأ سيجارته سحقاً في الجدار، متسائلاً برأسه، أين يستطيع أن يرمي ما تبقّى؟ التقطت عقب السيجارة من بين أصابعه. مسّت أصابعي أصابعه الأنيقة، وطوّحتُ بالعقب في زاوية.

ـ أنا أشبه عقب السيجارة هذا. أظنّ أنّي قد طُوِّح بي في زاوية.

ـ قلتِ للتو إنك خارجة من كتاب. العقب الذي رميته لا أهمية له.

ـ والشخص الخارج من الكتاب أيضاً، أله أهمية؟

ـ بالتأكيد.

زممت شفتيّ ولم أرد.

ـ هل أستطيع دعوتك إلى فنجان قهوة في مكان ما؟

ـ لا أخرج مع الغرباء.

ـ لكنني لست غريباً!

ـ كيف؟

ـ ألم نتحدث للتو؟

ـ أهذا يكفي؟

ـ يكفي لاحتساء فنجان قهوة.

ـ أشعر بالبرد، هل ندخل؟

دخلت. تركت معطفي عليّ. سألتني وأجبت بسرعة «لا، ليس خيالاً»، ثم وجدتني أفكر، «لكن الوقت ضيق أمامي، ما دُمت داخل الحدث، لن أستطيع أن أحدد ما إذا كان حقيقة أو خيالاً».

ـ هه،هيا بنا؟

وقفت صامتة. فأكمل:

ـ حسناً، اسمعي، لنفترض أنك كما تقولين، شخصية روائية، خرجتِ من كتاب، لماذا لا نناقش المسألة وكأننا نعيش في رواية؟

أعجبني كلامه، هززت رأسي متسائلة:

ـ نخرج معاً، نتناول القهوة في مكان ما، نثرثر، كما الآن، ثم تعودين إلى هنا، تماماً كما لو أنك خرجت من الرواية إلى الحياة، أو عدتِ من الحياة إلى الرواية.

لم أتمكن من مناقشة المسألة طويلاً برأسي، يتحدّث كما أفكّر، وفق منطقي ذاته، ما الفرق بين الكتاب والواقع، بين القصة المدوَّنة، والشفوية التي نحياها، ومن يحدّد إذا لم يكن ما نحياه هو رواية أيضاً؟ إنه يداعب أفكاري، فأنا أحاول العيش كما لو كنت في رواية.

ـ هل لديك نقود؟

ـ كثيرًا.

ـ حسناً، أنا لا أملك المال، أخرج معك، شريطة أن تعيدني إلى هنا.

ـ موافق.

ـ اسبقني، سأتصل برئيسة المستودع لأستأذن منها. ثم أضفت: لدينا ساعة واحدة فقط.

ـ حسناً، ساعة روائية تكفي.

ضحكت:

ـ عيش روائي لساعة من الزمن.

***

لا أعتقد بأننا احتسينا فنجانين من القهوة، لأن حالة الارتباك العيشي والشك الوجودي أصبحت أكثر كثافة. بدأت أشعر بخفة وزني، كأنني ريشة أكاد ألامس الأرض، وانتابتني رغبة كبيرة في الضحك.

أصبح وجودي بحد ذاته غائماً أمامي. من أنا؟ ماذا يحصل؟

تنتابني هذه الحالة في لحظات معينة، سأشرحها لاحقاً. ولكن ما الذي شربته للتو حتى صرت ميّالة للإحساس بأنني كائن غير واقعي، وأن كل ما يحدث الآن لا يحدث بالفعل. وأنني ربما متُّ منذ سنوات، وأتخيلني شخصية روائية -لساباتو غالباً- صدَّقت عيشي وتمدَّدت في وجودي.

ولأن الأحداث تمرّ حولي، وساباتو الذي أفترض أنه صنعني غير موجود أمامي، أو أنني لا أراه، بسبب غياب المؤلف، فأنا مضطرة لتحمّل ثقل وجودي الحالي، مهما كانت درجة شكّي به، إلا أنه، قد يكون حقيقياً، وعليّ أن أتعامل مع ما حولي ببعض المنطق الواقعي، لا الروائي.

ورغم محاولاتي لإعادة التوازن إليّ، وعدم الضحك، والتصرّف بخفّة، والتماسك كي لا أسقط، أو أسقط معي شيئاً مما حولي، الطاولة، أو إبريق الماء، أو المزهرية. فإنني لم أتمكن من التخلص من حالة اللامبالاة التي منحت جسدي خفة غامضة.

لنفرض أنني كائن روائي، فأنا أتصرف إذاً وفقاً لإرادة الكاتب أو الكاتبة، ولن تفلح كل جهودي في التحكّم بسلوكي. وإن لم أكن

كائناً افتراضياً، فإنني وحالتي ما هي عليه، ما من منفذ أمامي للتصرّف بعقلانية. كل ما عليّ فعله، هو الحذر، كي لا أسقط على الأرض، وأُعرّض نفسي لسخرية الآخرين.

ـ ماذا شربنا؟

ـ قهوة.

ـ فقط؟

ـ نعم، لكن أنتِ طلبت بعض الكونياك مع القهوة.

ـ أحسّ ببعض الدوار.

ـ تريدين أن نغادر؟

ـ أين نذهب؟

ـ تدخلين الكتاب.

قال ذلك وهو ينهض مبتسماً، فانفجرت غاضبة:

ـ أتسخر مني؟

ـ أعتذر.

قالها بلهجة تنمّ عن الاعتذار فعلاً. أجبته ببعض العدوانية:

ـ لا تكررها ثانية.

نهضت خلفه من دون أن يخطر ببالي سؤاله أين نذهب. كنت بحاجة للذهاب إلى مكان آخر، أي مكان، غير هذا المكان.

في المصعد (لا أذكر أننا أخذنا المصعد ونحن قادمَين)، أسندت رأسي إلى كتفه.

ـ أنت سكرانة؟

لم أجب.

توقف المصعد بنا، لفّ ذراعه خلف ظهري ليسندني، وأدخلني في سيارة، قهقهت قائلة، وقد تجشأت رائحة الكونياك:

ـ أهذا باب الرواية؟

ابتسم بطريقة فاتنة، تنبّهت إلى أنه وسيم للغاية. كنت قد شعرت بهذا من قبل، لكنني الآن أحسست كثيراً بوسامته، أهو السُّكر اللعين الذي يشوِّش مخيلتي، ألهذا ارتبكت وأنا أنظر في عينيه في المرة الأولى؟

ـ أين نذهب؟

ـ من فضلك، لا تطرح عليّ أسئلة منطقية، لست في حال تسمح لي بالتركيز، أنا الآن في مكان آخر.

أشعل صديقي سيجارة، انتبهت إلى أنني لا أعرف اسمه. رغبت في سؤاله عن اسمه، إلا أن هاتفه المحمول قطع رغبتي في السؤال. لا أعرف ماذا قال، فقد أجرى محادثة باللغة الإنجليزية التي لا أحبها، ولا أجيدها كثيراً، وحين أقفل الهاتف، كنت قد نسيت سؤالي.

جلست على أريكة مذهّبة. ثمة أشخاص كثيرون حولي، لا أعرف أين أنا، من جاء بي إلى هذا المكان؟

تركني، أو نسيني.

الأمر الذي خشيته دوماً، الخوف الذي رافقني مراراً، هو أن أضيّعني.

كيف أشرح هذا؟

لا أقصد الضياع الرمزي أو الفكري، بل المادي، أن لا أستطيع أن أذهب بي، أحملني، آخذني.. أف، لا أستطيع وصف هذا، حين أجرِّب الكلام عنه، يتحول إلى شيء آخر.

ثمة حالات تنتاب أحدنا، لا تستطيع اللغة تقديمها، بل إن اللغة، تشوِّهها.

عادة حين يحصل ازدحام في الطريق، أو يفقد الناس بعضهم الآخر، أُطمئِن نفسي: "أنا معي، لا شيء مخيفًا"، كَوْني معي، يطمئنني إلى أنني سأتصرف بطريقة سليمة وصحيحة. ولكني سرعان ما أتساءل: "ولكن من هذا الأنا الذي يرافقني وأثق به؟". أعرف أن هذا كلام صعب الفهم، لأنه صعب الشرح، ربما يشعر به البعض، وبأوجه مختلفة، لكن التعبير عنه بالكلمات صعب.

المهم هو أنني معي، لا مع أحد آخر. ماذا يحدث مثلاً، لو كنت في طائرة، أو باص، أو باخرة، ووقع حادث كَوني معي، سأنقذني، ولكنني لو كنت في مكان آخر غيري، فاحتمال نجاتي أقل بكثير.

لا أعرف كيف أشرح هذا، لا يهم، لا يهم.

أين أنا الآن؟ وكيف عليّ أن أكون معي لأساعدني؟ يجب أن أنهض، أتحرك، أسمح لهذه الأنا التي تسكنني بفعل ما، بدلاً من التسمّر جالسة وكأنني دونها!

كنت شبه غائبة. لا أعرف أين أنا! في مكان لم يسبق لي أن رأيته أو رأيت مثله. ضحك كثير وقهقهة بأصوات مرتفعة. تساءلت هل كلّهم شربوا قهوة مع كونياك؟ حولي أناس لا أعرفهم. تلفّتّ حولي. رأيته.

لمحته من بعيد، الوسيم الذي كلما رغبت في سؤاله عن اسمه، حدث أمر ما، ونسيت السؤال.

كان يراقص صبية جميلة للغاية. يحتضنها بشغف، يتبادل معها الحديث والضحك، يهمس في أذنها، تضحك بدلع. صبية حسناء إلى حد استفزّني.

نهضت متّجهة نحوه، إنه الشخص الوحيد الذي تعرفت إليه في هذا المكان الذي وجدتني فيه فجأة.

ـ كيف تجدين نفسك الآن؟

سألني، فهززت رأسي من دون جواب، لأن الكلام في هذا الضجيج، يعني أن عليّ الصراخ. أحسّ بالأمر وقال:

ـ هل نذهب؟

كما لو أنه أنقذني من مأزق، ابتسمت له، يبدو أنني لست في المكان الصحيح، ولكن ترى أين سيذهب بي؟

ـ سأجلب معطفي.

ما إن شممت هواء الشارع النقي، حتى تخففت من الضجيج الذي كان يحفر في رأسي.

ـ أين نذهب، سألته؟

نظر إلى الساعة:

ـ تأخر الوقت، أوصلك إلى المنزل؟

ـ كم الساعة؟

ـ التاسعة.

ـ مساءً؟

ضحك مقهقهاً.

ـ نعم، مساء.

ـ اعتدت على العودة في الثامنة مساء.

لا أعرف كيف تذكرت هذا بغتة؟

ـ هل من مشكلة؟

ـ لا أظن.

كما لو أنني كنت غارقة في الماء، أو أنني أرى الأشياء من خلف

حاجز، بدأت تنقشع الرؤية في رأسي، وبدأت أفكاري تتوضح أمامي، وتذكرت أين أسكن، وأنني ربما لست شخصية روائية، لأن العمارة التي أوقف الشاب الوسيم سيارته أمام مدخلها، كانت تحمل الرقم 6، كما قلت له من قبل وأنا أدلّه على عنوان سكني.

ـ أنزل معك؟

ـ نعم، من فضلك.

ترجّلنا من السيارة، دخل معي باب العمارة. مدّ يده مصافحاً معتذراً إن كان قد سبب لي أيّ إزعاج.

تركت يده الممدودة نحوي وتشبّثت بعنقه واشتبكت معه بقبلة طويلة.

كنت أشم رائحة النبيذ من شفتيه، ولكنه بدا كأنه لم يعانقني، ولم يقبّلني، كما لو أنني كنت أمسك بشخص من فراغ.

***

متجهة صوب الحاجز الحجريّ الذي يوضع خلفه سجل الدوام، متلفّتة حولي، مستطلعة ما إذا كان الوسيم هنا، أسير ببطء شديد ممزوج بدلع خفي، كما لو أنني أمام كاميراه الخاصة، حيث يراني من مكان ما ولا أراه. أزحت شالي المرقط (جلد الحيّة) عن عنقي، وتعمّدت ترك رواية ساباتو(أبدون ملاك الجحيم) تنزلق وتستقر على الحافة الحجرية. مستعيدة كل التفاصيل التي قد تحرّض على ظهوره. إن كان ما حصل البارحة حقيقياً!

كما لو أنني أعدّ الوصفة لظهور الجّنيّ أو لاستحضار روح تائهة، كنت أعدّ طقوسي، أتلفّت حولي، أفكّر به بقوة، مؤمنة بأن الأفكار تبث رسائل، تخلق طاقتها الخاصة بها، أستطيع إيصالها للشخص الذي أفكر به، وأحرّضه على التحرك.

أتجهُ محبطة قليلاً نحو المصعد، ولكن لا يزال ثمة متسع من الأمل. لقد هبط البارحة هنا، ملاكي الوسيم، بعد نصف ساعة من وصولي إلى العمل.

لو أن ميريام كانت هنا، لقالت بأنها تغار من رغبتي الدائمة في اختراع الأشياء، وأنني التي اختلقت ما حصل البارحة. أي أن ما حصل البارحة، لم يحصل سوى في مخيلتي.

عادة، لا أدخل في جدال طويل مع ميريام، كما لم أكن أفعل مع أمي. كلتاهما تنفيان وقوع الكثير من الأحداث التي تقع معي، مع أنها أحياناً تقع في أثناء وجودهما.

تعتقد ميريام بأن الملل والروتين في حياتي، يدفعانني إلى اختراع حوادث تمنح معنًى ما لحياتي. كما تعتقد أمي بأنني ومنذ طفولتي أؤلف حيوات موازية. تحدّثني مثلاً، أننا حين نشاهد فيلماً ما معاً، أرويه في اليوم التالي بطريقة مختلفة، وأنني أزوّر كل القصص، لأنني مصابة بالتهويل والمبالغة بالخيال.

لم أداوم البارحة في العمل لأكثر من ساعة، إذ تركت عملي وخرجت مع ذلك الشاب الذي عرض عليّ أن أكون جزءاً من رواية.

طعم قبلته لا يزال عالقاً بفمي، طعم نبيذ شفتيه الرطبتين الدافئتين.

جذبت السلم من مكانه، وعدت لترتيب البضاعة التي لم أنتهِ منها البارحة. ثلاث ساعات من دون توقف، رحت أتصبب عرقاً، لكثرة ما صعدت وهبطت السلم. كنت أعمل بسرعة، منتقمة من غيابه، مني ربما، لأنني اخترعت وجوده. من الحياة التي قدَّمت لي لحظة غير مكتملة، وتركتني في بداية الحكاية، عالقة على أبواب الانتظار الفارغة، جوفها كسرداب مظلم من اليأس. بغتة تذكرت. هرولت إلى ذلك الركن خلف

أتجهُ محبطة قليلاً نحو المصعد، ولكن لا يزال ثمة متسع من الأمل. لقد هبط البارحة هنا، ملاكي الوسيم، بعد نصف ساعة من وصولي إلى العمل.

لو أن ميريام كانت هنا، لقالت بأنها تغار من رغبتي الدائمة في اختراع الأشياء، وأنني التي اختلقت ما حصل البارحة. أي أن ما حصل البارحة، لم يحصل سوى في مخيلتي.

عادة، لا أدخل في جدال طويل مع ميريام، كما لم أكن أفعل مع أمي. كلتاهما تنفيان وقوع الكثير من الأحداث التي تقع معي، مع أنها أحياناً تقع في أثناء وجودهما.

تعتقد ميريام بأن الملل والروتين في حياتي، يدفعانني إلى اختراع حوادث تمنح معنًى ما لحياتي. كما تعتقد أمي بأنني ومنذ طفولتي أؤلف حيوات موازية. تحدّثني مثلاً، أننا حين نشاهد فيلماً ما معاً، أرويه في اليوم التالي بطريقة مختلفة، وأنني أزوّر كل القصص، لأنني مصابة بالتهويل والمبالغة بالخيال.

لم أداوم البارحة في العمل لأكثر من ساعة، إذ تركت عملي وخرجت مع ذلك الشاب الذي عرض عليّ أن أكون جزءاً من رواية.

طعم قبلته لا يزال عالقاً بفمي، طعم نبيذ شفتيه الرطبتين الدافئتين.

جذبت السلم من مكانه، وعدت لترتيب البضاعة التي لم أنتهِ منها البارحة. ثلاث ساعات من دون توقف، رحت أتصبب عرقاً، لكثرة ما صعدت وهبطت السلم. كنت أعمل بسرعة، منتقمة من غيابه، مني ربما، لأنني اخترعت وجوده. من الحياة التي قدَّمت لي لحظة غير مكتملة، وتركتني في بداية الحكاية، عالقة على أبواب الانتظار الفارغة، جوفها كسرداب مظلم من اليأس. بغتة تذكرت. هرولت إلى ذلك الركن خلف

ستارة القماش، يا للخيبة، كان عامل النظافة، قد أخذ كيس القمامة، لم أتمكن من التأكد من وجود عقب السيجارة.

انتهى الدوام. لم أتذوّق لقمة واحدة، أصابتني كآبة عميقة، ورغبة في البكاء، وإحساس قوي بالهجر وبالفقدان.

***

في اليوم التالي. دخلت من الباب الكبير للمؤسسة، توجّهت صوب دفتر التوقيع، بالخطوات الاستعراضية ذاتها: الشال المرقّط، رواية ساباتو، حتى أنني لم أغيِّر ملابسي لليوم الثالث. محافظة على شكلي كما كان في اليوم الأول، أتذكّر تلك اللحظات الأولى التي أخبرني بأنها نبّهته لوجودي.

كما لو أنه حبس وجودي في تلك التفاصيل، رحت أتصرَّف، كامرأة تلك اللحظة، عابثة بشالي المرقط (جلد الحيّة)، مداعبة رواية ساباتو.

لو أنني وحيدة في هذا المكان، لأعدت هذا المقطع من دون توقف. أدخل من الباب الكبير، أتّجه صوب الحاجز الحجري، أضع حقيبتي نصف المفتوحة، بحيث يظهر منها غلاف رواية ساباتو.أزيح شالي المرقّط عن عنقي، وأضعه برفق فوق الحقيبة. أوقّع، ثم أخرج من الباب، ثم أعود. أكرر هذا المقطع من دون توقف، مستدرجة مجيء فتاي، في إحدى لحظات تكرار اللقطة.

"الشال المرقط، الحركة التي أتيت بها وأنت تزيحينه عن عنقك. إنه ذاته، الشال المرقط، جلد الأفعى، ذو اللونين البني والبيج". قال هذا: البني والبيج.

أنهض عن كرسيَّ، أفتح حقيبتي، أخرج رواية ساباتو والشال. إنه الآخر، المرقّط، بالأسود والأبيض!

لم يكن اختراعاً إذاً.

في المقهى، قبل القهوة بالكونياك، مدّ يده بلطف:

ـ هل لي بلمس الشال؟

قدمته له.

ـ أرغب في الاحتفاظ به.

ـ أنت فيتشي؟

ـ تأكدي أنني لن أمارس العادة السرية في شالك، ولا عليه.

ـ أنت وقح.

بدأت أتذكّر بعض التفاصيل.

ثرثرنا بعدها. أذكر أنه شرح لي أنه لا يمارس العادة السرية. لماذا قال هذا؟ لا أعرف، ربما قال إن البنات يمارسن العادة السرية أكثر. لا أذكر مناسبة ذلك الكلام، وكيف جاء في السياق. أتذكّر فقط هذه اللقطة من البارحة.

أذكر أنه قال إن الشال ذكّره بفيلم...، قاطعته قبل أن يذكر اسم الفيلم، وقلت بعينين تتحمسان بسرعة حين تلتقطان الفكرة ذاتها، أو تتقاسمانها مع الآخر: "جاكلين السعيدة". هزّ رأسه. أضفت مفسرة: "لقد اشتريت الشال بعد مشاهدة الفيلم".

ـ كنت أحب الحركة البطيئة التي تنزع فيها جاكلين شالها المرقط بالبيج والبني.

ـ أنا أفعل مثلها تماماً. أحببت تلك الحركة في الفيلم. حين لمحت الشال في المخزن، اشتريته ووضعته على عنقي حتى قبل أن أدفع ثمنه. تماماً، كما كانت تفعل جاكلين، حين تضعه.

جاكلين.

ـ أنا أفعل هذا وكأنني هي.

ـ أنت تشبهينني كثيراً.

صمتنا.

أعتقد أنني أعطيته الشال، قلت له إني اشتريت واحداً آخر، قاطعني: لا تقولي أبيض وأسود. هززت رأسي مبتسمة. كان كل منا يقرأ في رأس الآخر.

كانت جاكلين قد تلقّت هدية من هنري: شالين مرقّطين، أحدهما بالأبيض والأسود، والآخر بالبيج والبني، وكانت تضعهما بالتناوب. أخذ الشاب الشال الذي كنت أضعه في ذلك اليوم، المرقط بالبني والبيج، وها هو الشال الآخر أمامي، لم يكن وهماً إذاً. لقد التقيته واقعياً. كان شخصاً حقيقياً. لو أنني سألته عن اسمه!

***

انتهى يوم العمل، أتلفتُ نفسي في العمل. أعدت ترتيب البضاعة القديمة، جردت الموجودات عدة مرات. أحاول فعل أي شيء يلهيني عن التفكير به.

مجدداً، بإغوائي الشاليّ أولا، أنزعه بلطف عن عنقي، وعيناي تدوران باحثة عنه. الخطوات ذاتها التي أمهّد عبرها لظهوره. أشعر بأنه في مكان ما، يراني، من دون أن أراه.

أتجه نحو المصعد. أجلس خلف المكتب. ليس لدي الكثير من العمل اليوم. حركة البيع والشراء قليلة. رن الهاتف مرات عدة. سجّلت بعض الطلبيات ليوم الغد. أمامي متسع من الوقت لتحضيرها.

في نهاية اليوم، لم أطق هذا الانتظار وكآبة الفقدان. حاولت التجوّل في الشارع حيث المقهى الذي اصطحبني إليه. قضيت ساعات متسكّعة. ربما أصادفه. لولا أن الظلام قد حل، لجلست في الشارع أنتظر مروره. لم أتناول لقمة طيلة النهار. أشعر بالجوع، ولكن لا رغبة لي بالطعام. في البيت وجدت تفاحتين، إحداهما تصلح للزبالة، والثانية يمكن اقتطاع أجزاء منها تصلح للأكل.

لا أعرف كيف نمت، لكنني حين استيقظت على صوت المنبّه، أدركت بأنني نمت.

وصلت العمل. اتجهت صوب الحاجز الحجري، نزعت شالي ببطء أكثر، كما لو أنني أنزعه، وقبل أن يهجر عنقي، أتركه، ثم أحاول سحبه. ببطء. أعبث بغلاف رواية ساباتو في حقيبتي المفتوحة. أتجه نحو المصعد. أصل المكتب. أجلس شاردة. أتأمل صناديق البضاعة الجاهزة للشحن. يصل الزبون بعد قليل، يجلب لي الفاتورة الموقّعة، ويحمل صناديقه بمساعدة عمال الشحن.. هه، الساعة الآن الحادية عشرة. انتهى شحن البضاعة. انتهى عملي لهذا اليوم، ولكن دوامي لم ينتهِ بعد، ربما يتصل بعض الزبائن، أو قد يأتي أحدهم للشراء من دون أن يتّصل مسبقاً.

رنّ هاتفي، هاتف المستودع، فأنا لا أستعمل هاتفاً خاصاً بي:

ـ ألو.

ـ صباح الخير.

جاءني صوته دافئاً، حنوناً، أنعش روحي، ارتجفت:

ـ أهذا أنت؟

ـ عرفتِ صوتي؟

ارتبكت ولم أعرف بما أجيب. سألته:

ـ أين أنت؟ كأنك اختفيت.

ـ أنا موجود.

ـ أحسست بأنني لن أراك ثانية.

ـ بلى بلى. كنت ألملم نفسي.

ـ كيف؟

ـ سأشرح لك حين نلتقي، هل تريدين أن نلتقي؟

ـ أنتهي من العمل في السابعة مساء، أيناسبك؟

ـ بل تعالي الآن، لك عندي عرض أفضل.

ـ أأنت جاد؟

ـ كما لا تتصورين.

لم أستطع ضبط نفسي عن الإسراع للذهاب إليه. منذ أربعة أيام وأنا أبحث عن أثر له، أي أثر، وها هو ينتظرني. لا يمكنني التفريط بهذه الفرصة في لقائه.

ـ أنا قادمة!

مرتدياً قميصاً أزرق سماوياً، وقد ترك لحيته تنبت قليلاً، فتمنحه المزيد من الجاذبية، كان يجلس إلى طاولتنا ذاتها، ينتظرني.

ـ امرأة أحلامي!

قال ناهضاً بمجرد أن رآني أدخل المقهى، التقط يدي وطبع قبلة على أصابعي، سرت قشعريرة في جسمي، استفسرتُ عن عبارته بحركة تساؤل من عينيّ وحاجبيّ، فقال:

ـ لا المرأة التي أحلم بها، بل المرأة التي تجعلني أحلم.

***

تلقيت عرضاً لم أحلم به يوماً، أنا الكائن الأكثر أحلاماً على وجه الأرض ربما. أنا التي تعيش حياتين، حياة شكليّة، خارجية، سطحية، هي العمل والعيش البَرّاني، وأخرى حقيقية عميقة، الحياة التي أصنعها في مخيلتي، والتي تشبهني وتجعلني أعيش كما أرغب.

طلب مني أن أتقدم بطلب إجازة من دون مرتّب من العمل، لمدة ثلاثة أشهر،على أن يدفع لي هو، ما يزيد كثيراً على راتبي الشهري، مقابل أن أكتب في هذه الإجازة.

ـ أكتب؟

ـ نعم.

ـ ماذا أكتب؟

ـ روايتك. ألم تخبريني بأن العمل الذي كنت تتمنينه هو الكتابة. ها أنا أحقق لك هذا الحلم. هذه فرصتك. تتفرّغين للكتابة لثلاثة أشهر، كتجربة أولى، ثم نرى بعد انتهاء هذه الفترة.

كما لو أنني على مركب يمور، مادت بي الأرض. الكتاب الذي أنتظر التفرّغ لكتابته منذ سنوات، تتاح لي اليوم الفرصة لكتابته.

ـ وأنت؟ ماذا تستفيد من هذا؟

ـ الحلم.

ـ كيف؟

ـ أنت امرأة تجعلينني أحلم. أنا بحاجة إلى هذا الحلم. هل يمكنك إنجاز روايتك في ثلاثة أشهر؟

ـ بل ربما في شهر واحد، وربما أقلّ. سأكتب ليل نهار. أجبته بفرح وحماسة.

ـ وأنا مستعد لتلبية كافة طلباتك التي تساعدك على تنشيط وتغذية مخيلتك وأدواتك الكتابية.

ـ كيف؟

ـ أي طلبات تساعدك على الكتابة، سفر، فنادق، زيارات لأمكنة تاريخية، أثرية، متاحف، حدائق، سينما، مقاهٍ، حانات، طائرات، سفن. كل طلباتك مجابة، كل ما قد يلهمك ويساعدك على الكتابة.

أطلقت ضحكة، فأنا التي لا يلزمني الإلهام. كل ما أحتاجه هو الوقت. التفرّغ، وعدم الانشغال بهاجس تأمين لقمتي وإيجار غرفتي.

ـ طلباتي سهلة، أقلّ مما تعرضه عليّ، تستطيع بسهولة تأمين طلباتي.

ـ بأمرك.

ـ فقط، أحتاج من يتسوَّق لي كل صباح، من يجلب لي الخبز والطعام، لا أريد الخروج من المنزل، حيث أكتب، يجب أن أستدعي أشباحي إليّ.

كان ينظر إليّ بدهشة. أحسست بمتعة جديدة عليّ. للمرة الأولى في حياتي، ثمة من يقدّر ثرثرتي. ثمة من يُصغي إلي. هذا البريق في عينيه حين أتكلم، الذي يشبه الإعجاب، يشجّعني للخوض أكثر في طبقاتي الداخلية. أخلع أثواب المرأة الظاهرية، القشور التي يراها الآخرون، وأُظهر تلك الجنية التي تسكنني. أمامه فقط أستطيع الاقتراب من جنّيتي التي تنام وتخمد، حين يكون الآخرون.

غادرنا المقهى، إلى مكان آخر أظنّه حانة. تناولت مشروباً لذيذاً لم أعرف اسمه. كان أخضر اللون، وتابعنا ثرثرتنا حول أشياء كثيرة. كنت مستمتعة بأنني معه، أريد أن أتحدث في أي شيء، لأبقيه مصغياً إلي، ليبقى معي. نادراً ما أشعر أن ثمة أحداً معي.

قلت له وأنا مسحورة، كأنني سندريلا التي تغادر كوخ زوجة أبيها البشعة الظالمة، لتقع بين يدي الأمير، الوسيم الطيّب:

ـ متى يبدأ مرتبي؟

ـ منذ اليوم. منذ هذه اللحظة أنت تشتغلين معي.

أخرج من جيبه محفظة نقوده، ووضع مبلغاً في يدي قائلاً:

ـ هذه سلفة، دفعة على الحساب.

ـ لكن هذا يعادل ما اتفقنا عليه لثلاثة شهور!

ـ لا. لا تفكري بهذا. اكتبي باسترخاء. كوني آمنة، لا تفكري بالمال. اكتبي فقط.

ـ أكتب! (قلت بلهجة جمعت السخرية إلى المودّة) إنهم هنا (أشرت إلى رأسي)، يحتاجون فقط إلى بعض الوقت لأنظّم حركة مرورهم وتسلسل خروجهم إلى الورق.

ـ ألا تحتاجين إلى حاسوب من أجل الكتابة؟

ـ لا، لا،أنا لا أستغني عن أوراقي، شخوصي لا تحب التكنولوجيا.

ـ غداً أجلب لك هاتفاً نقالاً، تستطيعين الاتصال بي متى تريدين، إن رغبت في أي شيء، كما قلت لك، سفر، سهر، تجوال، أنا جاهز!

وأنا أنزل من سيارته المتوقفة أمام العمارة رقم 6، تذكّرت أنني نسيت أن أسأله عن اسمه وسط الدهشة وفوضى الأسئلة الكثيرة وحالات غيابي عن الواقع التي تجعل وجودي مشكوكاً به. أمسكت بيده قبل أن ينصرف وهو يصافحني:

ـ انتظر!

ـ ماذا؟

ـ في كل مرة أنسى أن أسألك.

ـ اسأليني.

ـ ما اسمك؟

ـ وما أهمية هذا؟ ماذا يهمك إن كنت أدعى سمير أو ألفريد أو بيتر؟

ـ أليس لك اسم؟

ـ هل سألتك عن اسمك؟

ـ ألا تعرف اسمي؟

ـ ليس لأسمائنا أهمية في اتفاقنا. نحن كائنات افتراضية. وجودنا ليس مهماً. أنت تكتبين، وأنا أهيئ لك الجو للكتابة. ألا يكفيك هذا؟

ـ أحب أن يكون لك اسماً أناديك به.

ـ سمّني كما تشائين.

ـ ماذا تريد أن أسميك؟

فكّر قليلاً ثم قال:

ـ لنقل ساباتو.

ـ وأنا؟

ـ كوني أبدون.

ـ أبدون اسم مذكّر!

ـ ملاك الجحيم لا جنس له، لا مذكر ولا مؤنث، مثل الروائي.

ـ لا يعجبني هذا، أريد أن أكون ساباتو.

ـ ساباتو أيضًا اسم مذكر.

ـ ساباتو الروائي، وأبدون الرواية. يجب أن أدعى ساباتو، ولتكوني أنتِ أبدون.

ـ حسنا، نسميك أرنستو.

ـ أرنستو أيضاً اسم مذكر، لنقل أرنستيا.

ـ ما هذا التخريف، لا يوجد هكذا اسم.

ـ أنا روائية، ومن حقي أن أخترع.

صمتَ مذعناً. لم أستطع احتمال رؤيته صامتاً هكذا، فقلت:

ـ حسنًا، وجدت اسماً.

نظر إلي متسائلاً.

ـ سمّني ميريام.

ـ لماذا ميريام؟

ـ هو اسم صديقتي التي أتمنى أن أكونها.

نظر إلي غاضباً وقال:

ـ أنت روائية. أنت تخلقين الشخصيات. ما دمت تريدين أن تكوني شخصاً آخر، وتشعرين أنك أقل من ميريام، فلن تكتبي، لن تكوني روائية جيدة.

نظرت إليه باستعلاء، ومددت يدي إلى علبة سجائره وأشعلت سيجارة، وقد تقمّصت تماماً دوري الجديد:

ـ نحن لم نوقّع اتفاقنا بعد، نقودك في الحقيبة، ها هي، خذها، ولينصرف كل منا إلى حاله.

ـ لماذا غضبتِ؟

ـ لأنك تحدثني بتعال وعنجهية. أنا الروائية، أنا صاحبة القرار، وأنت هنا لتنفّذ رغباتي، ألَم يكن هذا اتفاقنا؟

ـ أجل.

ـ إذاً، أمنعك عن مخاطبتي بهذه اللهجة، أو التعامل معي بهذا الأسلوب.

ـ أعتذر.

نفخت نفساً طويلاً.

ـ ألا يعجبك اسم ميريام؟

ـ لا تهمني الأسماء، ولكن لم يعجبني دافعك لاختيار الاسم.

ـ لأنني أحب أن أكون ميريام؟

ـ أجل.

ـ ولماذا نكتب إذاً؟

ـ أجيبي أنت على هذا السؤال.

ـ لأننا لا نكتفي بأن نكون ذواتنا.

استعادت عيناه ذلك البريق الذي يفسدني، فأتمادى وأشتط، تحوّلني عيناه اللامعتان إلى صبية مدلّلة، مشاكسة، أستطيع قلب الطاولة عليه.

أشعر بمتعة لا يمكن وصفها، أتحوّل إلى طفلة لا تتجاوز السنوات الخمس من عمرها، حين يصحبها والدها إلى مخزن كبير مليء بالدمى والألعاب والناس، تنطلق كقطار مسرع بين الحشد، تقلب كل شيء، تأخذ الألعاب وترميها، تفكها، تعبث بها، تضحك وتضحك من دون توقف. كنت أشعر دوماً بأن العالم مبني بطريقة خاطئة. كنت أرغب دومًا بتفكيكه وإعادة تركيبه.

مشطا قدميّ أمي واسعان قليلاً، طالما حلمت أن أحضر سكين المطبخ، وأسويهما. كل شيء حولي يحتاج إلى إعادة صياغة.

نظرات أرنستو اللامعة تطمئنني. إعجابه يثيرني. يثير طاقات إيجابية قوية بداخلي.

شعرت بأن وقوفنا طال أمام المبنى، وأنه ربما تعب من الوقوف، لكنني تابعت:

ـ نعم، نحن نكتب لأننا غير قانعين بمحدوديتنا الكونية.

ـ كيف؟

ـ انظر إليّ، إلى جسمي النحيل، إلى شعري الأسود، إلى تفاصيل جسدي. تجدني محبوسة في جسد محدود وأعيش حياة محدودة. الكتابة تتيح لي ابتكار حياة موازية لعيشي الضيق، المحدود، والذي لا أحبه، وحتى جسدٌ أرسمه كما يحلو لي.

ـ هروب.

ـ ليكن.المهم إلامَ يؤدي هذا الهروب. أنا أهرب من وجودي المحدود، وعيشي المشروط، إلى عيش موازٍ، أختاره، أصنعه بنفسي. مملكة فيها بشر وأمكنة وأشياء وسماوات.. كلها من صنعي.

ربّتَ على كتفي بلطف، فاقشعرّ جسمي:

ـ هذا ما أريده منك، انقلي لي هذه العوالم، على الورق.

ـ أتحب القراءة؟

ـ ليس هذا ما يعنيني.

ـ إذاً، لماذا تريدني أن أكتب؟

ـ لأني أستمتع بوجودك هكذا، أحلم معك، أنتِ تجعلينني أحلم. هذا يحقّقني. نعم، أحقق سعادة ما، خفية، حين أحلم..

ـ القراءة أيضاً تجعلك تحلم.

ـ القراءة ليست واقعية، عوالم مصنوعة، أما أنتِ، فكائن حقيقي أمامي، هذا يثيرني بقوة، يثير فرحي، غبطتي، انتشائي الروحي.

سَرَت كلماته في جسدي كتيار كهربائي،"أنتِ واقعية"، قال هذا. إذاً أنا لست حلماً، أنا حقيقية، وما يحصل حقيقي.

ـ حسناً، أتركك الآن.

ـ سأمرّ غداً لأعطيك جوّالاً خاصاً بك، وسأصطحب معي الصبية التي ستعتني بتلبية احتياجاتك التافهة.

ضحك وهو يقول"التافهة"، مشيراً إلى متطلبات العيش الواقعي، التي تعيقني عن الحلم، والكتابة.

***

منبطحة على أرضية الغرفة، منهمكة في الكتابة، كعادتي حين أكتب، أنبطح على بطني. وضعيتي منذ الصفوف الأولى في المدرسة. وجهي فوق الأوراق المرمية على الأرض، وقدماي تنوسان يمنة ويسره، وساقيّ مطويتان إلى فوق. ثمة طاقة جنسية تنولد بداخلي أثناء الكتابة. أحتاج إلى الليبيدو. يساعدني بعض ذكوري بتحريض طاقتي الجنسية لأكتب. إنها ألاعيب لطيفة، لا تهدف إلى المتعة الجنسية الخالصة، بل إلى استثارة طاقاتي الخبيئة، التي يساعدها الليبيدو على الظهور.

رجال يخرجون من ثنايا الملابس، من جيوبي، من جواربي. يدغدغون قدميّ، ثمة من يمرر لسانه على بطة ساقيّ. ومن يلحس رقبتي. وثمة من يدلّك بيده ظهري. ثمة من يستلقي فوقي. الوضعية الأحب إلي، حين أتحول إلى ورقة مقلوبة، ليقع فوقي، ويدس يده بين ساقيّ من الخلف، ثم يأخذني على مهل.

حين مال برأسه نحو وجهي، وحاول أن يقبلني، ارتجفت من المفاجأة. كان أرنستو فوقي، وكان قد ولجني. أفقدتني المفاجأة الرغبة في المتابعة. كيف تجرّأ على ولوج غرفتي، والتنكر بين ذكوري، هؤلاء الذين أنتقيهم بدقة، وأجلبهم معي إلى غرفتي، فأضعهم هنا، وأسكنهم معي، ليقاسموني الكتابة والحلم.

قبل أن أعترض دفع بذكره بقوة في داخلي، فشعرت بلذة غامضة، لذة مختلفة، فتلاشت احتجاجاتي، وأسلمت له جسدي، وتركته يقلبني كيفما شاء. تركتني له، ثم غفوت بين ذراعيه.

***

أجلب العالم إلى غرفتي

لا يلزمني الكثير من الجهد لأستحضر شخوصي. إنهم يزدحمون في داخلي، وأزدحم بهم. كل ما نحتاجه، أنا وهم، وهنّ، هو هذه الغرفة. حيث، ما إن أغلق باب الغرفة عليّ، حتى أغلق باب العالم، العالم الآخر، وأدخل إلى عالمي أنا.

ـ تبدين قلقة؟

سمعت السؤال. ولأنني فعلاً قلقة، لم أبحث عمّن طرحه. هززت برأسي.

خرجت عيوش من خزانة المطبخ، حيث يحلو لها الجلوس هناك. أحضرتْ علبة سجائر ومنفضة. أشعلتْ لي سيجارة، وجلست متربّعة بجواري على الأرض:

ـ ماذا بك؟

ـ يجب أن أكتب.

ـ هذا ما كنا نطلبه منك دومًا. لقد حانت اللحظة، ماذا تنتظرين؟ كلنا هنا من أجل هذا، هل أدعوهم؟

ـ لا، ليس على الفور، أحتاج لبعض التفكير.

ـ لا تقلقي.. ألم تكن هذه رغبتنا جميعاً؟ ألم تتحرَّقي ألماً أمام توسّلات جعفر منذ شهرين وهو يقول لكِ سئمتُ عيشي داخل ألواح

خشب الفرشة، اكتبي وأخرجيني على الورق. (كنت أضع فراشي القطني، على لوح من الخشب، لأمنع تسرّب الرطوبة إلى الفراش، كما أظن، أو لترتفع الفرشة عن الأرض، المهم أنني استأجرت الغرفة، ووضع الفرشة هكذا).

ـ أتظنين الأمر سهل؟

ـ أتخافين من الفشل؟ أنت روائية. وماذا نفعل نحن هنا؟ انظري إليّ، أصرتِ تشكّين بوجودي؟ ها أنا إلى جوارك، أتحدّث إليك، إن لم تكوني روائية، فماذا أفعل أنا هنا؟

ـ....

ـ لا تعجبني نظرتك، كأنك تشكّين بوجودي؟

أنفجر بالبكاء وأقول:

ـ أنا أشكّ في وجودي نفسه!

ـ لأنك روائية. هذا طبيعي، اهدئي.

كان هذا صوت دّريّة، وهي تخرج من خزانة ملابسي. وتابعت:

ـ لقد رتبت أحذيتك. سأحضّر لك شراباً يخفف من قلقك ويدفعك إلى العمل.

حبيبتي دريّة. إنها تقف معي دوماً. كما عيوش وراضية وآن ماري ومارتا وإيهاب وهايدي وهالة ويان ولورانت ورونالد ووحيد وغالية وإبراهيم وعليا وإيمان ونائلة وكريستوف وفاطمة ونادية وفلورا وفالنتينا وساره وعارف وأنطوان. جميعهم، جميعهنَّ، يحاولون تأمين أجواء لأكتب، لأروي، لأُخرجَ حكاياتهم إلى الحياة.

لحظات وحضر شراب دريّة العجيب. ما إن أخذت منه عدة جرعات، حتى امتلأت بالحميّة والهمّة. أخرجت أوراقي البيض،

تمدّدت على بطني، وضعيتي المفضلة، واصطفّ الجميع من حولي في الغرفة، منبطحين على بطونهم، أو مقرفصين، أومتمدّدين على ظهورهم، أو جالسين يجتمعون من حولي ويتزاحمون في أوضاع خلابة. ولأن الغرفة لا تتسع لهم جميعاً معاً، فقد بقي بعضهم في الزوايا والأمكنة التي يحيون فيها، في علب المطبخ، في الثلاجة، في أدراج الخزانة، في ثنايا الفراش.

بدأت أكتب.

على الصفحة الأولى سجّلت:

هكذا أجلب العالم إلى غرفتي. وتابعت.

لم أعدّ أميز بين يدي ويد لويز أو يد أليس أو هاميس أو فرانكو.

ثمة يد ميشيل، ويد حليم، ويد فريدا،

أيادٍ كثيرة تتناوب على الكتابة في أوراقي.

كان عليّ أن أرتّب مسار الحكاية فقط.

كنت أدخّن وأنظر إليهم متجمّعين حولي، لأقرر اللحظة المناسبة لتدخّل أحدهم أو إحداهن، في الكتابة.

بدأت أشعر بالجوع، نظرت إلى الساعة، فوجدتها تشير إلى الرابعة صباحاً. أطفأت النور، تاركة الجميع حولي يسبحون في الظلام، وأوراقي مبعثرة على الأرض، واندسست مرهقة في الفراش، مثيرة الإزعاج لبعض الذين كانوا يستلقون في فراشي.

أيقظني جرس الباب. كانت الساعة التاسعة. أوراقي على الأرض، وضيوفي مختبئون، كل في مكانه المعتاد عليه.

فتحت الباب بشعري المنكوش، فوجدته أمامي، ترافقه فتاة في عمري.

منزلي الذي أقيم فيه، مكوّنٌ من هذه الغرفة فقط. بعد هذه الفتحة المستطيلة في الجدار، التي لا تزيد على طولي إلا بعدة أشبار قليلة، وتتسع عرضاً لشخصين من حجمي، ثمة ثلاجة وفرن غاز، وبعض الأطباق والطناجر. يعني، لوازم المطبخ، ثم الحمّام، وبداخله المرحاض.

حين يُفتح الباب، فإن الغرفة بكل تفاصيلها، تصبح مكشوفة للواقف على الباب.

كاد يصرخ مندهشاً:

ـ ما هذه الفوضى؟

أجبته ببرود وأنا أستدير نحو الداخل ليلحق والصبية بي:

ـ من قال لك إنني سيدة منزل أو مهندسة ديكور!

ـ ألهذه الدرجة تعيشين في الفوضى؟ أجابني مستنكراً.

نظرت إلى أرضية الغرفة، للتأكد من عدم مبالغته. كانت أوراق الكتابة متناثرة على الأرض، وثمة قشور تفاح وبرتقال، وأعقاب سجائر فرّت من المنضدة واسترخت على السجادة، وكؤوس شاي وعلب عصير معدن وبلاستيكي.

قالت الفتاة مرتبكة:

ـ سأرتّب المكان.

ـ لا، صرخت بها، لا تتحركي.

انحنى أرنستو (هكذا اتفقنا على تسميته)، وراح يلملم الأوراق، أشرق وجهه وهو يقرأ بسرعة وفضول:

ـ بدأتِ؟

ـ أتعتقد بأنني ألعب؟ أجبته متهكمة.

فردّ على تهكّمي بابتسامة.

أعشق نظرته البراقة. بريق عينيه يسحرني. أموت فيه، في هذا البريق. مستعدة لاختراع أكثر القصص والروايات غرابة وتميّزاً وإدهاشاً، لقاء هذا البريق. أذوب في عينه حين يكسوهما بريق الإعجاب، أتحول كلّي إلى كتلة تملكها عيناه. أحب وجودي حين أراه بعينيه، أحبني وأرضى عني، حين ينظر إليّ هكذا، بهذا البريق، ألتمع تحت نظراته، أتحوّل إلى فراشة تشع بالفرح.

قرفص على الأرض التي انتقد للتو فوضاها. تربع فوق قشور التفاح والبرتقال، أزاح علب العصير من دون تركيز، ليجد فسحة فارغة يجلس فيها، أشعل سيجارة، وراح يقرأ.

ـ ليس هذا اتفاقنا.

جلست بجواره.. عبقت في أنفي رائحة عطره، رائحة ذكورة فتيّة. تذكرت أنني حلمت به، وشعرت بأنني ما زلت مثارة، إلا أنني قمعت إحساسي بالمتعة المختلطة، ما بين الحلم، وبين حضوره الفيزيائي أمامي. ذكورته الفتية، رائحة عطره، بشرته الناصعة، شعره الأملس.. يجلس قربي، جسمه قريب من جسمي، شبه ملتصقة به، أرى عنقه الذي يعجبني، شعره الأملس.. شفتيه، أراهما عن قرب. هذه أول مرة نجلس معاً على الأرض، بتواطؤ الأطفال، ببراءة خبيثة، كنت أتحدّث إليه باستعلاء مفتعل، لأخفي ارتباكي الأنثوي. سحبت الأوراق من يده، نظر إليّ متضرّعاً، مستديرًا نحوي. شفتاه قريبتان من وجهي، بل شعرت بأنفاسه تلامس وجهي وهي تخرج مع جملته المعترضة:

ـ ألا يحق لي أن أقرأ ما كتبتِ؟

ـ كلا، لا يحق لك. جمعت أوراقي بمكر واستعلاء طفولي مفتعل، يصدقه هو من دون شك، لأنني أتقن تمثيله. هذه نسختي أنا. حين أطبع الكتاب، تقرأه كغيرك، إن كانت لديك شروط جديدة، يمكننا تعديل الاتفاق.

ـ لا، لا يزعجني تأجيل القراءة، فقط انتابني الفضول لمعرفة ما فعلتِه منذ اليوم الأول لمباشرتك العمل معي.

ـ لا أحب أن تقرأ قبل أن أنتهي تماماً. هذا يشوّشني. إن نظرة منك كفيلة بإحباطي وتعيقني عن الكتابة.

ـ أعتذر.

أشعل سيجارة جديدة وقال:

ـ ثمة شرط نسيت البارحة إعلامك به.

كانت الصبية لا تزال واقفة عند الباب، لا تعرف ماذا تفعل، انتبه إليها ساباتو (هكذا قررت تسميته)، فقال لي:

ـ ماذا تحتاجين من الخارج؟ أبدون تستطيع أن تتسوق لكِ.

ـ أبدون؟

ـ نعم. أحببت هذه اللعبة. لا مكان محدد ولا زمان ولا أسماء. تستطيعين كتابة هذه الرواية في أي مدينة، في بغداد، في القاهرة، في تونس، في باريس، في برلين، في لندن، في دمشق، في مدريد. ليس لهذه القصة مكان، وليس لأشخاصها أسماء حقيقية، أنا ساباتو وأنت ميريام، فلماذا لا تكون هذه الصبية أبدون؟

هززت رأسي موافقة.

ـ هه، ماذا تريدين أن تتسوّق لك؟

ـ لا أعرف بعد، كنتُ نائمة فأيقظتني. حسناً، ربما بعض الخبز،

وزجاجة حليب وسكّر وقهوة. آه، وأوراق، أهم شيء الأوراق، أنا أستهلك الكثير منها.

أعطى ساباتو نقودًا للصبية أبدون، بعد أن دوّن في ورقة طلباتي تلك. فأسرعت الفتاة خارجة، كأنها تبخرت.

ـ من يدفع لها؟ سألته.

ـ يدفع ماذا؟

ـ أجرتها.

ـ أنا.

ـ ولكنك لن تقتطع هذا من راتبي، أليس كذلك؟

ـ لا، بالتأكيد، أجرتها والنفقات كلها منفصلة عن مرتّبك.

ـ لماذا تفعل كل هذا؟

ـ ألم نتحدّث في هذا من قبل؟

ـ ولكن هذا كثير. أنت تنفق كثيراً، لا أفهم.

ـ من أجل تحقيق حلمك.

ـ ألهذه الدرجة أنت مولع بتحقيق أحلام الآخرين؟

ضحك فازدادت وسامته. ارتجف قلبي. قلبي يرتجف كعصور بلّله المطر في يوم باردٍ حين أنظر في عينيه.. وخاصة حين يضحك. يثيرني. أشعر ببلل مباغت، خفيف.

ـ أيزعجك هذا؟

ـ لا، إنما يدهشني

ـ وأنت أيضا تدهشينني.

صمتنا قليلاً. تذكرت فسألته:

ـ قلت إنك نسيت شرطاً في اتفاقنا؟

ـ الجنس.

صمتّ، ونظرت إليه بخَفَر.

احمّر وجهي كمراهقة، فأضاف:

ـ لا وجود للجنس بيننا.

صمتّ منزعجة من وقاحته، ومحبَطة من الشرط، فشرح أكثر:

ـ حفاظاً على تميّز اتفاقنا وجدّيته، أريد أن نتفق على استبعاد الجنس بيننا.

صمتُّ.

فأضاف:

ـ عزيزتي، اعذريني، اسمحي لي أن أشرح لك أمراً شخصياً.

صمتُّ. فتابع:

ـ إن هذا أمر جوهري بالنسبة لي، هذه المرة الأولى التي سيحدث لي أمر كهذا، أريد أن يكون كل شيء بيننا، مختلفاً وسحرياً. الجنس سيُدخل علاقتنا في تفاصيل الواقع، أريد أن أرسم كل ما بيننا في فراغ من الافتراض الجمالي، لا أريد للواقع أن يُفسد الحلم.

صمتُّ.

أشعل سيجارة ثالثة، في حين كانت سيجارته الثانية ما زالت مشتعلة، وكأنما أحسّ بإحباطي من شرطه الجديد، تابع:

ـ كنت على علاقة حب قوية مع فتاة، كانت كل أحلامي. تزوجنا كما يحصل في القصص الجميلة والرومانسية، حيث النهايات السعيدة. لم يكن ينقصنا شيء. بعد ثلاث سنوات من الزواج الهانئ كما اعتبرتُه، فاجأتني ذات يوم بطلب الانفصال.

بصمت، نظرتُ إليه نظرة مشجّعة على تكملة الحكاية.

- هل تعرفين ماذا كانت مشكلتها؟ لماذا أرادت أن ننفصل؟

كنت ما زلت أنظر في عينيه بإحساس من ينتظر الجواب على سؤاله.

ـ الجنس. نعم، الجنس. بعد ثلاث سنوات قالت إنها تشعر وكأنها أختي، وأنني رجل طهراني، نعم، هكذا وصفتني تماماً. إنها تريد رجلاً قذراً، فظاً، داعراً. تريد رجلاً فحلاً يأخذها كما لو أنه يغتصبها، بحرارة، بقوة. آسف، لا أستطيع أن أذكر أمامك العبارات التي تلفظت بها زوجتي، وهي تصف الرجل الذي يثيرها، والذي لا أشبهه. تركتْ بداخلي جرحاً عميقاً لم يشفَ بعد، جرح الذكورة. عاملتني وكأنني كنت ضعيفاً ولم أكن رجلاً معها. وكأن كل اللقاءات الجنسية بيننا، طيلة تلك السنوات، كانت ترغم نفسها عليها، مجبرة كنوع من الواجب. تقوم بذلك من أجلي. قالت إنها لم تستمتع يومًا في سريري. إنها أحست بأنني أضاجعها كما لو أنها تحفة أخاف عليها أن تنكسر، بأدب، بتهذيب، بلباقة لا تطلق في جسدها عنان الجنس الذي يثيرها.

بعد انفصالنا، تحوّلت كل النساء بالنسبة لي إلى أدوات متعة.. مواضيع جنسية، لا غير.

تحولتُ إلى ماكينة جنس. أضاجع النساء بفحش وشراسة. تحولت حياتي إلى أفلام بورنو ونوادٍ للتبادل الجنسي. فقدت كل تاريخي السابق، رومانسيتي، لطفي، أناقتي في ممارسة الجنس. حين رأيتك، بشالك المرقط، ورواية ساباتو، تذكرين هذا؟ (هززت برأسي)، لقد تحدّثنا مرات عدة عن الشال والرواية، حين رأيتك، منحتِني الحلم.

أنت امرأة تجعلني أحلم، وحين أخبرتني بأن أمنيتك هي كتابة الرواية، فكرت بالأمر، نتبادل متعة مختلفة. لدي المال، ولديك الرغبة،

فلماذا لا أستمتع معك بتحقيق رغبتك البعيدة عن الجنس، إذ أقرف من الرجل الذي صرته، آلة الجنس المتنقلة. هل تفهمينني؟ أريد لعلاقتنا أن تنجو من الجسمانية. إن نمتُ معك مرة واحدة فقط، سيموت الحلم الذي أحياه معك، أريدك أن تبقي امرأة من حلم، امرأة حلم. لا أريد أن تعرفيني واقعياً، لا اسمي، ولا مكان سكني، ولا أي شيء عن هويتي الفعلية، أريدك أن تحلمي، وتجعليننني أحلم. أريد أن نحلم.

رن الجرس، ووصلت أبدون.

***

بعد أقل من أسبوعين على وجود أبدون معي، طلبت منها مغادرتي.

في اليومين الأولين، كانت معي طيلة الوقت، جالسة تنتظر طلباتي. في الأيام المتبقية من الأسبوع، طلبت منها أن تذهب أحياناً، فكانت تغيب وتعود. لكنني لم احتمل وجود أحد يجلس محدّقاً بي طوال الوقت، كان هذا يشتتني، يمنعني من التركيز، ويزعج شخوصي.

كنت أمام خيارين، إما الإبقاء عليها، وقمع شخوصي الذين لا يخرجون أمام غيري، أو الطلب منها مغادرة المنزل، لتستعيد شخوصي حرية تنقلها في الغرفة.

اكتشفت بأن وجودها لم يكن مهمًا كثيرًا، لأنني كائن. تكفيني ربطة الخبز لأسبوع، وزجاجتا حليب. تسوّق مرة واحدة في الأسبوع، ليس مشكلة، بل فرصة لتنزه شخوصي معي أحياناً، إذ منهم من يحب الخروج، أشعر بهم يتعلّقون بملابسي، يندسّون في حواف حذائي، يتسللون في البطانة الداخلية لمعطفي، في جيوبي.

حين أقرر الخروج، ما إن يلمحوني أرتدي المعطف، حتى يتقافزوا ليحتلوا أمكنتهم في جسدي. الأسرع منهم بحيازة مكانه يبقى، كأنني حافلة. ومن لا يجد مكاناً، يتبرّم منتظراً فرصة خروج أخرى.

الرفاهية التي طلبتها ورغبت بها متمّماً لشروطي اليومية، لتساعدني على الكتابة، كانت وهماً. لست كائناً بحاجة إلى ترفيه. لا تحتاج الكتابة إلى رفاهية.

لم يهمني الخبز اليومي الطازج، ولم يضف إلى كتابتي. يكفيني أن أطهو لمرة واحدة، لأسبوع بكامله، والاستعانة بالمعلبات ليست عقوبة بالنسبة لي. الخروج الكثير يربكني. أحتاج إلى مشوار واحد في الأسبوع، أكثر من هذا، لن أستطيع الإصغاء لأصوات الذين يحاورونني، ويكتبون معي.

التماسّ مع العالم الخارجي، يفقدني ذاتيتي، وعالمي الذي ينمو من داخلي، وعيشي مع شخوص حكايتي. الكتابة، حالة ذاتية، فالآخر عندي تكمن أهميته في الحياة التي أبنيها له، وهي ليست مطابقة لحياته، فعندما تتطابق حياة الرواية مع الحياة الفعلية للشخص تفقد الرواية مبرّر كتابتها.

حين أشعر بالسأم، والحاجة إلى تحرير ساقيّ ببعض المشي، وتحرير عينيّ بتغيير مشهد الغرفة، أتصل بساباتو (هكذا اتفقنا على تسميته). حيث اتفقنا على ألا يتصل بي، حتى لا يشوّشني. حين أحتاجه، أتصل به، فيحضر.

انهمكت في الكتابة من دون توقف، كانوا جميعهم أوفياء معي، جاهزين لخدمتي والتعاون معي، قالت لورانس: هذه روايتنا جميعاً.

تشاركنا جميعنا في كتابتها. كنت أنام قليلا، ثم أصحو لأكتب. كل شيء كان مدوَّناً ومرسوماً في رأسي، كان عليّ فقط أن أدوّن ما يدور في رأسي، وحين كنت أتعب، كان شخوصي، يتناوبون على الكتابة في رأسي.

جميعهم ساندوني: نارين، خالد، عبلة، ميادة، إدغار، كاتي، فاني الشقراء العصبية أحياناً، كريستيان، باسكال الذي نسميه الدبدوب، حتى مارك كان يدلي بدلوه، فاتي العجوز التي تكاد تتكسر من شدة هرمها، كانت تخرج من زجاجة الخل العتيقة، وتساعدني.

عزيز الذي مات منذ سنوات طويلة. كنت طفلة حين مات، ومن يومها، فرّ من المقبرة، وسكن بداخلي. كنت أخاف منه في البداية، لأنني لم أكن قد تآلفت مع الموتى. لم يكن لدي أصدقاء موتى. كنت صغيرة، وأفكاري عن الموت والموتى خاطئة. ولكنني مع الوقت ألِفته، وأحببته، وسمحت له بمقاسمتي وسادتي.

عزيز يأتي معي أينما أذهب، لا يحب المقبرة الباردة والمظلمة، يشعر بالطمأنينة معي. هو أيضاً، رغم أنه كان يتعب بسرعة، لأنه مات في حادث سيارة هشّم جمجمته، تبرّع بعدة ليالٍ قضاها معي، كان يؤانسني حتى لا أتعب فأنام. كان يغلي لي عيدان القرفة، ويخلطها مع الجوز المجفف، ويحضّر لي أغاني جديدة تبعث فيّ الحيوية والطاقة، لأكتب.

هايدي الفارّة من غابات بعيدة، المهاجرة من زحمة الشمس، كانت تنتقي لي أغاني مدهشة، لم أكن أعرفها، أو سمعتها من قبل.

عزيز كان متخصّصاً بالأغاني الشرقية، العربية، التركية، الكردية، الهندية. أما هايدي، فقد كانت ميّالة إلى الموسيقى الغربية. فكانت تنتقي لي الأغاني الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية.

كنت أتلقى رسائل نصّية من ساباتو (كما اتفقنا على تسميته) على هاتفي، ليطمئن عليّ. كان يقلقه صمتي.

كنت أرسل له الرسالة ذاتها، من دون حاجة لإعادة كتابتها، فقط

أضغط على زر إعادة إرسال: كل شيء تمام.. سأتصل إن لزمني أي شيء.

أكتب وكأنني ثور فلاحة.

أكتب وأبعثر الأوراق، أنسى ترقيمها. في الصباح أجدها مرقمة، ومرتبة.

لم أشطب جملة، ولم أعِد صياغة جملة، أكتب بتدفق، لمرة واحدة، كأن ثمة من يملي عليّ. من دون تردد، من دون تفكير، من دون تأمل. كما لو أن كل شيء مرصوف. كل ما تفعله أصابعي، هو اللحاق بالقلم الذي يخط ما في رأسي.

ثمة ارتباط خفي بين أفكاري وقلمي. حين يسير قلمي على الورق، يسحب الجمل من رأسي. كلما تحرك قلمي، لحقت به الأفكار من رأسي، واستلقت على الورقة. كأن القلم مربوط برأس خيط أفكاري، ما إن أفتح غطاء القلم، حتى تأتي الأفكار بسلاسة وتنسكب. أعتقد بأن مرافقيّ الأزليين، ضيوفي الداخليين، يمسكون بقلمي، ويسيّرونه.

هذه إذاً ليست روايتي وحدي، إنها روايتنا جميعاً. ولكن لا بد لي، تقديراً لهن ولهم، أن أكتب الفصل التالي، الصفحة الصغيرة التالية، أشرح فيها كيف تم لقاؤنا؟

***

سكاني الأزليون، مرافقيّ!

بدأ الأمر مع عزيز، ولأهميته في حياتي، كونه مرافقي الأول، سأكتب حكايته.

مات عزيز منذ سنوات طويلة.. كنت طفلة حين مات، ومن يومها،

فرّ من المقبرة، وسكن بداخلي، كنت أخاف منه في البداية، لأنني لم أكن قد تآلفت مع الموتى. لم يكن لدي أصدقاء موتى. كنت صغيرة، وأفكاري عن الموت والموتى خاطئة. ولكنني مع الوقت، ألِفته، وأحببته، وسمحت له بمقاسمتي وسادتي. عزيز يرافقني أينما أذهب، لا يحب المقبرة الباردة والمظلمة، يشعر بالطمأنينة معي. هو أيضًا، كان يتعب بسرعة، لأنه مات في حادث سيارة هشّم جمجمته.

أما فاني، الشقراء، العصبية أحياناً، فقد التقيتها في مكتبة لبيع الكتب المستعملة.

كنت أهبط السلم، حين رأيتها مختبئة خلف ركام من الكتب غير المصفوفة بعد. ما إن رأتني حتى ابتسمت لي مشجعة إياي على التحدث إليها.

كانت فاني مهووسة بالكتب القديمة. كما لو أنها تبحث عن سرّ ما لن تجده إلا داخل الكتب.

لها نظرة غريبة، مزيج من الذكاء المتّقد والتشكيك في العالم.

تصوّب نظرتها نحو أي شيء، أي كائن، أي جملة في كتاب، بمنحى التشكيك بوجوده، وتحيله عبر تركيز نظرتها، إلى احتمالات أخرى.

تقول فاني إن الحياة ليست أكثر من تفوق احتمال على آخر، رجحان كفة ما. فهي مولودة بعينين زرقاوين مثلاً، لأن رجحان الأزرق كان أقوى من الأسود أو الأخضر. لا تؤمن بالمورّثات، ولا بالترابط المنطقي بين الأحداث والأزمنة. تقول: كلها احتمالات، يمكن تغيّرها في لحظة.

طال الحوار بيننا في المكتبة. قالت لي إنها تراني مختلفة، لأنني

مثلها، لا يقينية وأصدّق الاحتمالات الأخرى للشكل المرئي المتمظهر. منذ ذلك اليوم، وهي تسكنني.

فاتي العجوز لها حكايتها أيضاً. كما لكل منهم حكايته.

فاتي، كما كان زوجها يدعوها، وفاطمة، بحسب اسم الولادة، كانت مغرمة بربطات الثوم اليابس المعلّقة في أماكن جافة، في الصيف.

كنت قد اشتريت ربطة ثوم كبيرة، من سوق الأحد في قرية قريبة من بيتي، حيث أتسوَّق في نهاية كل شهر. باعتني ربطة الثوم، وقالت إنها مرهقة من الحياة، ومن طلبات العائلة، فجلبتها معي.

أما ماتيلد، فقِصّتها لا تُصدَّق فعلاً.

وشارل الوسيم كم يضحكني غرامه بسوبرمان. هو يقفز بحركات مضحكة، مقلداً سوبرمان. بعد رحيل أمه المبكر بالسرطان، وفشله العاطفي، هجر رغبته في التمثيل، وانضمّ مع شركائه في السكن ليعيش داخلي، مختبئاً من قسوة العالم.

و حكاية ريما ذات السبع سنوات.

وآنييس وشيراز وراما. سأروي كل هذا. لدينا الكثير من الوقت. سأحكي لكم عن كل هؤلاء.

***

وجدت ساباتو (هكذا اتفقنا على تسميته) واقفاً أمامي، حين فتحت الباب، الذي رنّ جرسه للتو.

ـ لم تقنعني رسائلك الهاتفية، حتى إنك لا تبذلين جهدًا في كتابتها. أف، ما هذه الرائحة؟

بدأ ساباتو بانتقاد المكان فور دخوله.

ـ كيف تعيشين هكذا؟

ـ اخرج!

نظر إليّ مستغرباً، فكررت:

ـ اخرج! اخرج بهدوء قبل أن تثير غضبي فأمزق كل هذه الأوراق.

نظر إلى كومة الأوراق على الفراش، حيث كنت أكتب منبطحة على فراشي الممدود على الأرض، إذ ليس لديّ سرير!

ـ لا، اهدئي، فقط أريد الاطمئنان عليك، ألا أستطيع الجلوس قليلا؟

غيّر لهجته، وبدا مؤدباً، فأجبته بتهكم:

ـ رائحة المكان تزعجك!

ـ لا، قلت هذا من أجلك أنت. أخشى أن تتضرري.

ـ لا تخشى عليّ، هذه حياتي، وبهذا الوضع أكتب.

ـ حسناً، ألا تريدين أن نخرج قليلاً، أنت محبوسة منذ ثلاثة أسابيع!

ـ بل أخرج أحياناً.

ـ أتسمين هذا خروجاً؟ نصف ساعة للتسوق مرة واحدة في الأسبوع. اسمعي، لدي حفلة غداً، سأمرّ لاصطحابك، أعرّفك إلى بعض الأصدقاء، هه، ما رأيك؟

ـ لا أعرف.

ـ فكّري، أمامك طيلة الليلة ونهار الغد لتقرري. سأمرّ غدًا مساء، فكّري بالأمر، ستتسلّين قليلاً.

إن شرطه الجنسي، أو شرطه اللاجنسي، أو شرطه بخصوص استبعاد الجنس بيننا، يربكني. أنا أكتب من أجله، إرضاءً له، أضع كل أصدقائي الذين أحبهم في خدمته، أضع عالمي كله بين يديه، من أجل

تلك النظرة البرّاقة في عينيه. أريده أن يكون سعيدًا بي، بل، فخور بي.

كلما توغّلت في الكتابة، شعرت بأنني أكتب من أجله. شعرت بأنني أقترب منه أكثر عبر الكتابة. ألمس بشرته، أتحسّس جلده، أشمّ رائحته.

بريق عينيه يحوّلني إلى طفلة تركل الأبواب، تكسر الأقداح، تضحك ملء فمها.

***

تعويذة رحم

لا أعرف إن كانت هذه العبارة مكتوبة، أو أن ثمة من نطقها. لا أعرف كيف وصلت هنا. كنت أسير وحدي، في حقول القمح الشاسعة.

أفكر وحدي، يتطاير ثوبي مع الهواء، يتطاير شعري. الجو ربيعي، نحن في شهر أيار. بيدي كتاب، رواية، هي روايتي الأخيرة. ما حاجتي إلى قراءتها.

كنت أتحدث إلى شخص رجل أو امرأة لا أعرف، يسير بموازاتي بين عيدان القمح الطويلة، وكانت السنابل العالية الخضراء، تحجبه عني. أتحدث متابعة حواراً ما بيننا، أسمع صوتي، أتحدث عن العلاقة بين الإبداع والرحم. أحاول أن أدوّن ما أقوله، أو ربما هو من كان يدوّن ما أقول، لا أعرف، ثمة خلط بين الشفوي والمكتوب.

كنت أصف له المقطع الطولي لرحم مبدع. الإبداع أنثى. الإبداع تجويف، حفر، عمق، لهذا فإن العلاقة وطيدة بين تكوين المرأة والإبداع، فالرحم تكوير، حفرة عميقة، تجويف. عضو المرأة يتصل بفراغ داخلي، بينما عضو الذكر هو مجرد نتوء خارجي، حدوده خارجية. حين يلتقي الذكر بالأنثى، فإنه يلج، وبولوجه يطّلع على بعض

أسرار المعرفة الجوانية، وهو يقذف، لأنه يحسّ بلذّة ما هو داخلي.. إن دهشة معرفة الداخلي، الجوّاني، هي ما تسبب له القذف. أما المرأة فلا تقذف، بل تجد لذّتها في تلك الرطوبة الكثيفة، التي هي رحيق معرفتها الرحمية، التي تفرزها حباً بالضيف الوالج، بالذكر. وحين تشهق، أو تصرخ، أو تتأوّه، فإن ذلك يكون على قدر الترحيب الذي يستحقّه الذكر الضيف. إنها بذلك تدعوه لكي يدرك قدرتها على البذل المنبجس من عمق مشاعر لا يمكن للرجل أن يحسّها إلا في داخل امرأة، في رحم امرأة. الرحم عطاء والمرأة عطاء، أما الرجل، فهو أخذ. في العملية الجنسية قد تبدو المرأة مستقبلة، لكنها حين تفعل ذلك فهي تعطي، تستوعب، تحتضن، تعلّم معنى العَطاء إذ تُعطي نفسها.

كنت أشرح، وبغتة، خرج من بين سيقان القمح. كان ضخماً كإله أسطوري. حملني بين ذراعيه. كان رأسه عالياً، فلم أرَ وجهه. كانت قطرات الندى تسيل مني على حقل القمح، فتنبت أزهار النرجس الأبيض والأصفر مكان نداي. زرعني بغتة في وسط العيدان، أزاحها بذراعيه القويتين، واضطجع فوقي. حين شهقت وقد غمرتني ملوحته، استيقظت لأجدني في غرفتي، لا في حقل القمح.

***

منذ سنوات طويلة، نسيت عددها، لم أهتم بنفسي بهذه الطريقة، ولم أخرج بصحبة رجل.

حين كنت مستغرقة في الكتابة، دخل عليّ من دون موعد مسبق، قطع سلسلة أفكاري، ثم راح ينتقد المكان متأففاً، انزعجت منه، وتصرفت بعصبية.

غريب، ألم أكتب من أجله؟ لماذا ضايقني حضوره الذي قطع عليّ الكتابة؟

إذا كانت كل تلك الصفحات إرضاء له، ليدُسها بقدميه إذاً. ليمزّقها، ليفعل ما يرغب بها، ألم يكن من الأجدر بي، الاحتفاء بوصوله المباغت، الذي أحب.

كيف انفعلت، وصرخت به وطردته؟ لماذا تصرّفت بذلك النَّزَق؟

كما لو أنني لا أزال تلك الطفلة، التي كانت أمي تسحبها من يدها غير مبالية بما أقول أو أطلب. كنت لأمي مجرد يد مشدودة إلى يدها، تسحبها من دون أن تستدير نحوي، من دون أن تنتبه إلى ارتطامي بالآخرين في الزحمة، من دون أن تبالي بتعثّر قدمي أو التوائها، كانت تسحبني فقط. إحساسها بيدي داخل يدها، كان كافياً لطمأنتها، بأنها لم تضيّعني، وأنني معها.

ساباتو (ألم نتفق على دعوته بهذا الاسم)، هو الذي أعاد إليّ الإحساس بطفولتي النَّزِقة. أحبه. نعم أحبه، وأشتهيه، وكل ما أكتبه هو تعبير عن رغبتي به، أكتب تحت ضغطٍ إيروسيٍّ قوي، أكتب ثم أنزلق مرهقة في الفراش، متصورة أنه يحتضنني، سعيدًا بي، بكتابتي. أكتب لأنال رضاه، لا شيء يهمني، سوى رضاه.

أخرجت ثوباً جميلاً ارتديته مرة واحدة، ثوبي الخمري القصير، وحذائي الخمري اللماع، المصنوع من جلد الحية، ذي الكعب العالي. بدوت كزجاجة نبيذ فاخرة وأنا أصبغ شفتيّ بأحمر شفاه من لون ثوبي. رتبت الغرفة. منذ أيام طويلة، نسيت عددها، لم أرَ غرفتي مرتبة هكذا. فتحت النافذة المطلة على الحديقة. لا أعرف منذ كم شهر، لم أفتح النافذة! استسلمت غرفتي لترتيب مباغت، لنسائم هواء منعشة، لامرأة أنيقة.

وانتظرته.

لم يتأخر كما في قصص العشق المعذّبة، حيث تذرع البطلة الغرفة ذهابًا وإيابًا، تنظر في الساعة، من الشرفة، تصغي إلى وقع أقدام الحبيب. لا، لم يتأخّر، بل جاء قبل أن أبدأ بانتظاره. جاء حبيبي.

جاء وسيماً كعادته، فاتناً.

كان حليق الذقن، يبتسم بطفولة. شعره الأملس ينزل على جبينه. صفّر بإعجاب وهو يراني أمام الباب الذي فتحته ما إن سمعت وقع خطواته على الدرج، مركّزة كل تفكيري عليه. غابت شخوصي التي تشغلني وغابت أحداث روايتي. لست منشغلة إلا به. تركيزي يترقّب حضوره، ترقب ملامسته لم يتحول بعد إلى انتظار.. إذ وصل.

مرَّرَ أصابعه بلطف على خدي. شعرت بملمس أنامله الناعمة على بشرتي. ارتجف قلبي فرحاً، كقطة يريحها اللمس، رغبت بأن أغمض عينيّ على مرور أصابعه البطيء على خدي. أمسكت بحقيبة يدي كطالبة في الثانوية. ثنى ذراعه لأتأبطها، ثم خرجنا ضاحكين.

ـ أين نذهب؟

ـ حفلة لدى أصدقاء، ستستمتعين، أعدك بهذا.

كنت متألقة. شعرت بجسدي خفيفاً، رغم كعبي العالي، بدوت أقصر منه، لم يكن ضخماً كإله، لكنه بدا أطول مني، رغبت لو أنه يحملني، أو على الأقل، لو يحيط خصري بذراعه، لكنه اكتفى بأن أتأبط ذراعه حتى السيارة. لكنني لا أزال سعيدة، فأنا معه، أنظر في عينيه اللتين أحب، أرى ابتسامته الساحرة، الطفولية.

مزيج من رجل متسلّط، قوي، عصبي قليلاً، نزق، وطفل مسالم، طيب، حنون، مهذب. بشرته ناعمة، وجهه، عيناه، شعره الأملس، كلها ذكورة وعنفوان. أما يده، فهي خريطة ذكورته، يده القوية، حين يضعها

على كتفي، أو على ظهري وهو يدفعني بلطف لأتقدّمه، أشعر بأن أمان العالم، يحطّ حيثما تحطّ يده.

استمتعت كثيرًا بالسهرة. وشربت كثيراً.

كنت بحاجة إلى تحرير انفعالاتي. كنت نزقة، ومشاعري مضطربة، أحاول ضبط رغباتي. المشروب يساعدني في الانعتاق من عقلي. شربت كثيراً. كنت أتنقل بين أصحابه، أبتسم وأثرثر منطلقة، أحاديث لا أهمية لها، عن الموسيقى والموضة والسينما.

كان بعيداً عني، عيناي لا تفارقانه، متألّقاً كعادته. أحب ضحكته العابثة، أحبّ غروره الخفيف، نرجسيته، استهتاره، لا مبالاته، فوقيته.. نعم، أحب فوقيته. حتى وأنا أشعر بقزميتي أمامه، لا أبالي. أحبه، هذا كل شيء، أحبه.

أتراه أول رجل أحببته منذ سنوات نسيت عددها، رجل أتأبط ذراعه، أشمّ رائحته. رجل تلمّس وجنتي بظاهر إصبعه. رجل سبق لي وأن تذوقت طعم شفتيه، رجل عابث، لا يبالي بي، يبتعد عني كلما اقتربت منه. ينجذب لنساء أخريات، يراقصهن، يتبادل الأنخاب معهن، وأنا، الروائية الرصينة التي تكتب من أجله، أرى كل هذا العبث في حياته.

للمرة الأولى، ألتقيه وسط الآخرين. إلا أنه لم يقف معي ولا حتى دقيقة. تركني منذ وصولنا معاً، قدّمني إلى أصحابه، ثم افترق عني. تركني وذهب إلى صديقاته.

كنت أشرب وأرقص وأثرثر، وعيناي لا تفارقانه، بينما لم تقع عينه عليّ، ولا حتى بالخطأ.

غاب عن عيني مرات، وظهر مجدداً. كان يختفي.

ذهبت إلى التواليت، فلمحت خياله على الشرفة. اقتربت وسط

العتمة. أعرفه حتى من خياله، رأيته يتبادل قبلاً شهوانية مع امرأة أخرى. كان يعانقها، يعتصر خصرها، ويشدها إليه بقوة، وكانت تلتهم شفتيه متأوّهة.

تلك الشفتان اللتان تذوقت طعمهما النبيذي لمرة واحدة، ثم حُرمتُ منهما، أراهما تتمرّغان في فم امرأة أخرى.

مقهورة، مستاءة، أعود إلى الصالة.

يطول غيابه، ثم يظهر ليُشير إليّ من بعيد، أهرع مستجيبة لإشارة سبّابته بانكسار وخشوع، يكفيني أنه سدّد إلي نظرة.

ـ لقد تعبت وأريد الانصراف، هل تبقين أم أوصلك؟

ـ أنا لا أعرف أحدًا هنا، خذني إلى البيت.

بعد أن نزلت الدرج خلفه، رأيتها تنتظره في السيارة.

كان قد أعطاها المفتاح، جلَسَتْ في المقعد المجاور له، فقذفت بنفسي في المقعد الخلفي.

غبتُ بينهما. كانا يثرثران حول قصص مشتركة، ويضحكان. يتحدّثان عن أصدقاء مشتركين بينهما، أحداث وقعت لهما، وكأنني شبح في المقعد الخلفي.

لم يوجّه أحدهما أي كلمة إلي، حتى إنه لم يقدمني لها. ولم أعرف اسمها. حين وصلنا أمام منزلي، كأنه تذكرني قال:

ـ تصبحين على خير.

نزلت من السيارة صامتة. كشبح أصيب بحادث سيارة. منكسر الساقين، زحفت إلى غرفتي، في القبو.

ماذا يمكن أن يكتب شبح بساقين مكسورتين، مرمي في المقعد الخلفي؟

ما إن رطمت الباب خلفي، حتى انفجرت أنابيب غضبي، وتبعثرت دموعي في أرجاء الغرفة. ارتميت على الأرض مضحّية بثوبي الأنيق الذي تجعلك تحتي. بكيت كما لم أبكِ منذ سنوات. لم تفلح محاولات الصديقات في تهدئتي.. رفيقة، رئيفة، عواطف، كاتي، ولا حتى فاتي التي أحبها أكثر. صرخت بهن: "اتركنني وحدي، أكرهكن جميعاً".

عثرت على زجاجة ويسكي في المطبخ، في الركن الصغير الذي أدعوه بالمطبخ، من دون ثلج ولا كولا، صببتُ كأساً. هدأت قليلاً. خلعت ثوبي وحذائي، ارتديت قميص نوم مريح من القطن الناعم، بلون بنفسجي فاتح. لا تزال غرفتي أنيقة ونظيفة ومرتبة.

وضعت موسيقى أحبها. جلست متربعة على الأرض، وأحضرت أوراقي.

صفقتها أمامي وفكرت مجدداً، ماذا يمكن أن يكتب شبح بساقين مكسورتين، مرمي في المقعد الخلفي؟

لم يهدئ الويسكي حالة القهر والذل التي ركبتني.

الانتقام.. الانتقام هو ما يبرِّد ناري، هو ما قد يفعله شبح بساقين مكسورتين، مرمي في المقعد الخلفي.

أمزّق الأوراق؟ أحرق تلك اللحظة التي أعشقها، بريق عينيه المعجبتين بكتابتي؟ أمزق ابتسامته؟ أمزق فرحه؟

أمزق قبلته الغارقة في فم الصبية المنعشة، المتأوهة، الذائبة، من شفتيه.. أمزقه!

لن أمزقها جميعًا مرة واحدة. سأمزقها ورقة ورقة. ببطء، كأنني أذبحه على مهل.

أقطع الورقة الأولى إلى نصفين، آخذ كل نصف، وأقطعه إلى نصفين.

الورقة الثانية، الثالثة، الرابعة..

يرن هاتفي المحمول، هاتفه الذي أحضره لي. يظهر اسمه على الشاشة.

أمسح دموعي، أنسى غضبي، أشعر بفرح مباغت، كأن شمساً سطعت بغتة، بعد مطر عاصف.

ـ أيقظتكِ؟

كان صوته دافئاً، ارتجفت بنشوة غامضة.

ـ لم أنم بعد!

ـ أعتذر عن الليلة، كنت سخيفاً معك.

ياه، وماذا أريد أكثر من هذا؟ صوته الدافئ يغمرني. كأن ناراً اتقدت فجأة في غرفة من الصقيع، سرى صوته في دمي، مختلطًا بالويسكي، لأشعر بأني غيمة دافئة أطوف في الغرفة.

أغفر له. أنسى كل ما حصل. يخرج الشبح من المقعد الخلفي، ينزل، يفتح باب السيارة الأمامي، يجلس إلى جواره، صبية حسناء، بثوب خمري أنيق، تدسّ أصابعها في خصلات شعره الأملس، يأخذ أصابعها بنعومة، يقرّبها من شفتيه، يقبّل أصابعها بحنان.

ـ أتسمعينني؟

قطع صوته سَرَحَاني.

ـ نعم.

ـ ألن تسامحيني؟

ـ لا تقلق، لم يحدث شيء.

ـ حسناً، ستنامين الآن بهدوء، هه؟ من فضلك، نامي الآن، نتحدث غداً.

ـ سأكتب قليلاً.

جاءني صوت نسائي. صوتها يأمره بغنج وتكاسل: "هيا، أسرع، تعال إليّ".

إنها في سريره، سيضمّها بين أحضانه. تنزل الصبية ذات الثوب الخمري من السيارة، تتحّول مجدداً إلى شبح بقدمين مكسورتين، تمشي من دون عَكّاز، وقبل أن تقطع الشارع إلى الطرف الآخر، تدهسها سيارة مسرعة.

ـ أنتِ هنا؟

يقطع صوته كابوسي.

ـ نعم.

يأتيني صوتها مجدداً وهي تستعجله. فيقول:

ـ حسناً، أتمنى لك ليلة سعيدة.

قالها بسرعة، ولم ينتظر ردي. كان في عَجَلة. أغلق الخط.

تأمّلت الأوراق، وقررت أن ألتزم باتفاقنا، حتى آخر لحظة.

جمعت الأوراق التي مزقتها. وتابعت الكتابة.

لأنه لا بد لهذه الرواية من نهاية. ولأنني فقدت النهاية، لم يكن أمامي سوى إنهائها بالخطيئة.

الجنس بوصفه خطيئة روائية، وخطيئة فنية، وخطيئة حياتية. هكذا أدمّره، وأدمّر الرواية، فتنتهي الحكاية.

ناديته: تعال. فجاء.

سمعت صوت خطواته على الدرج. كنت أترقبه، ولم أكن قد بدأت الانتظار بعد.

كل شيء، يتصلّح الآن. إن ما حدث في السهرة، وفي السيارة، كان خطأً، ويمكن إصلاح الخطأ دوماً.

يدس يده في صدري، أشهق من الرغبة والنشوة.

ـ أحب ثوبك البنفسجي.

ـ وأنا أعشق كل ما فيك.

ـ هكذا نضع نهاية للقصة؟

أجبته: لا يمكنني أن أكتب رواية واحدة لعشر سنوات مثلاً. تعال، خذني.

بعثرنا أوراق الرواية، طار كل شيء في الهواء: الحوادث، الشخصيات، المكان، الزمان. بعثرني وبعثرته. عراني وعريته، ثوبي البنفسجي تأرجح على شرفة الجيران، وقميصه سقط في الحديقة. علِق أحد جوربيه في قبضة الباب، والثاني استقر فوق رأس زينب، ورأيت سروالي الداخلي يقع في حضن فريدريك.

حين صرخت من الألم والمتعة وهو يلجني، تدفق بسرعة، كأنه مضخة مَنيْ يتطاير في الأرجاء، بعثر نشوته على جدران غرفتي. تركني أنام بعمق، كما لم أفعل منذ سنوات نسيت عددها. لأنام الآن.

***

أيقظني هاتفه في منتصف النهار.

ـ نائمة؟

ـ تأخرت في النوم ليلة البارحة

ـ كتبتِ؟

ـ أنهيت الرواية.

ـ ماذا؟ بهذه السرعة!

ـ أجل، بهذه السرعة.

كنت أحدّثه باقتضاب وبرود.

ـ أمرّ عليك الآن؟

ـ لا، أمرّ أنا.

ذهبت إلى عنوان دَلّني عليه، لا أعرف إن كان منزله أو منزل أحد أصدقائه. كنت أدسّ أوراق الرواية، 350 صفحة من القياس الكبير، في حقيبتي ذاتها، التي أسندتها إلى بلاط الحافة الإسمنتية، حيث مدّ ساباتو رأسه من الحقيبة.

دخلت ببرود، ولم أسلِّم عليه.

ـ غاضبة؟

ـ أبداً.. لقد انتهى كل شيء.

ـ ما هو الذي انتهى؟

ـ الاتفاق، الرواية.

أخرجت الأوراق وقذفتها فتطايرت في أرجاء المكان. سقطت على رأسه كأنها قطن تطاير من مخدة.

وقف مبهوتاً.

ـ أهذا ما يهمك؟ لقد انتهينا.

كنت أبكي وأنا أرمي بكل ما لدي هنا. بقلبي الذي كسره، وشخوصي الذين استخدمتهم واستغللت صداقتهم من أجله.

تركت كل شيء مبعثراً، الأوراق، الشخصيات، دموعي، سحبت حقيبتي من دون أن ألتفت، كما كانت أمي تفعل، وهي تجرني ساحبة يدي.

هرع خلفي.

ـ ماذا حدث؟

ـ نمت معك. ألا ينهي هذا اتفاقنا؟

ـ اتفاقنا هو الرواية.

ـ هي هنا. إنها لا تعنيني، ما يهمني هو أنت.

صمت كلانا.

ندمت على اعترافي الذي جعلني أبدو ضعيفة في عينيه، استدرت لأنصرف، أمسك بذراعي:

ـ نحن لم ننم معاً.

أجبته ساخرة:

ـ أعرف. لقد أنهيت الرواية هكذا، عبر حلمي ورغبتي بك.

نزلت الدرج مسرعة، متصورة أنه سيلحق بي سيعتذر لي، ويتوسَّل.

***

هاتفه لا يرد. لا أعرف اسمه لأبحث عنه.

كان اسمه ساباتو،واختفى.

شهر آخر مرّ، شهران..

أكتب، وأكتب.

لا أرى أحدًا، ولا أحد يراني. فقط أصدقائي الساكنين معي هنا، الذين يقاسمونني عيشي.

شهران، ولا خبر منه.

شهران، لا أفعل سوى الكتابة.

أتناول شوربة العدس التي تطهوها غالية كل مساء. قليلا من القهوة

في الصباح، مع قطعة بسكويت. في الظهيرة، آخذ قطعة فاكهة، وأتابع الكتابة، وكأنني يد، فقط يد، يد تتحرك على الورق.

ضجرت من شوربة العدس (بعد خمسة أسابيع من تناولها كل ليلة)، رأفت بي جانين، وصنعت لي شوربة الشعيرية، مع عصير البندورة.

لم أنتبه إلى الزمن، مع أنني لم أفعل من قبل، إلا أنني كنت أربط المنبه، للذهاب إلى العمل. أما الآن، وأنا في إجازة مدفوعة من قبل صديقي الوسيم، فلا حاجة لي للانتباه إلى الزمن، ولا إلى ربط المنبه. أخرج أحياناً، ولا أعرف منذ كم يوم لم أخرج، فأنا لا أراقب الليل والنهار، وليست لي ساعات نوم محددة. حين أخرج، وأجد أن الوقت ليل، أعود إلى المنزل، مدركة أن الأسواق مغلقة. لا شيء يدعوني للخروج، سوى شراء الخبز أحياناً، أو السجائر.

عرفت أنه مضى أسبوعان، لأن جرس الباب رن اليوم. وكان موزع الرسائل يحمل لي رسالة من العمل. يخبرونني فيها أن إجازتي انتهت منذ أسبوع، وأنني إن لم ألتحق بالعمل خلال ثلاثة أيام على الأكثر، أُعتبر مستقيلة.

في اليوم ذاته، جمعت الأوراق التي كتبتها، والتي كانت موزّعة هنا وهناك، وكانت كثيرة فحشرتها، في الفرشة. أفرغت فرشتي من نصف حشوتها القطنية، ودسست الورق بين كُتل القطن.

لا أعرف ماذا كتبت، وكم كتبت.

ربما عشرات الروايات. دسست بعضها في خزانة ملابسي. لديّ على الأقل - أكره العدّ - عشرون رواية جاهزة. سيقول لي فاغراً فمه البديع، فمه الذي أشتهيه، حين يسمع بالرقم «عشرون رواية في شهرين؟ أنت جنيّة؟».

نعم، أنا جنيّة الرواية. مسكونة بالرواية، لست وحدي من يكتب. إنهم معي، يحيطون بي، يكتبون معي، سأموت قبل أن ننتهي من تفريغ حكاياتنا على الورق، لن يكفينا العمر، لندون كل ما لدينا، شخوصي وأنا. الحياة أقصر، وفوق هذا، لا وقت بعد اليوم، سأعود إلى العمل، ويعودون هم، وهن، لانتظار فرصة أخرى، لنكتب!

أعرف أنني سأموت ولن أنهي ما في رأسي من حكايات. أعرف أن الروائي يموت من دون أن يقول كل ما لديه، وربما، قبل أن يقول أهم ما لديه. ربما تكون العشرون رواية التي كتبتها في شهرين، مع الرواية التي تركتها له، مجرّد تفريغ لشحنة الروي التي لدينا، أنا وشخوصي، نزلائي، أما الرواية الحقّة، التي تستحق أن نكتبها، بعد التخلص من دفق الانفعال، فلم أكتبها بعد، وربما لن أتمكن من كتابتها.

سأذهب غداً إلى العمل. سأستعيد ذلك الروتين الممل، سأتثاءب مجدداً، سأجلس في ذلك المستودع الرطب. أنتظر الهاتف الذي لا يرن، أقرأ الروايات التي تعلّق جسدي في سقف المستودع، تاركة قدميّ تحت. أعود إلى الملل والوحدة. ثم أعود في آخر النهار، إلى هذه الغرفة، أكتب وأكتب، وأحشر كتاباتي في علب المطبخ، في أكياس الرز والسكر والبرغل. بين الطناجر القديمة التي لا أستعملها، منتظرة أن يرن هاتفه الذي لا يزال يدفع فواتيره، أو أن يرن جرس الباب، ذات يوم، لأراه أمامي.

***

هذا هو يومي الأول، بعد انقطاع ثلاثة أشهر وأسبوع.

وضعت شالي المرقط، دسست رواية ساباتو في حقيبتي، محاولة اجتذاب فتاي التائه مني.

مرت ميريام بعد الظهيرة، تشاجرت معي لأنها كانت قلقة عليّ.

قالت إنها مرت عليّ في المنزل عدة مرات، قرعت الجرس وطرقت الباب، وما من مجيب.

استغربت قليلاً، لأنني لم أغادر خلال تلك الفترة، إلا ليلة السهرة، وخرجت عدة مرات، للتسوق وعدت بسرعة.

حدّثت ميريام عنه، عن ساباتو، فضحكت عليّ وسخرت مني. اعتبرت كلامي من أحلام يقظتي التي أحياها دومًا، ولتنهي النقاش الذي طال بيننا وأنا أحكي لها عن تفاصيل واقعية، قالت: "هذه ليست أول مرة تحدثيني فيها هكذا، سبق لك وأن قابلتِ كافكا في قبو المنزل، كان يكتب مختبئاً من العالم.. أنتِ صديقتي وأعرفك منذ سنوات طويلة".

لتحرجني، سألتني عن اسمه، أحسست بالارتباك والحرج، فأخبرتها أننا اتفقنا على ألا نستعمل أسماءنا الواقعية.

في طريق العودة إلى البيت. في الباص الذي ركبته من العمل، رأيت جريدة مرمية، كانت لعدد البارحة. قلبتها بسأم، خفق قلبي من الدهشة. صورته هنا. قرّبت الجريدة إلى وجهي أكثر، إنه هو، ساباتو الذي أضعته.

خبر عن روايته التي أحدثت ضجة كبيرة منذ صدورها، ونفاد طبعتها الثالثة خلال شهر واحد من صدورها. نزلت من الباص مسرعة، واتجهت صوب أقرب مكتبة في الحي، اشتريت الرواية من نقوده التي لا أزال أنفق منها.

أخذت الرواية بفرح، رحت أنقّب فيها، إنها روايتي، كلمة كلمة.. لم يغيّر فيها حرفاً، ولا حتى فاصلة. أذكر علامات ترقيمي، وجملي المعترضة، ونقاطي الكثيرة.

إنها روايتي" الطبقة الثانية من العيش"، كما هي: المقدمة التي كتبتها ووصفت فيها شخوصي، نزلائي المقيمين فيّ، قدمتهم واحداً واحداً، واحدةً واحدة. المقدمات التي كتبها كل منهم، منهن. إنها روايتي، روايتي أنا، إلا أنها تحمل اسمه هو، وعلى الغلاف الأخير من الرواية، تعريف بالروائي!

***

نسخت صورتيه، تلك التي على غلاف الرواية، والتي في الجريدة، وعملت منهما عدة نسخ، وبأحجام متنوعة، من ماله الذي لا أزال أنفق منه، وألصقت الصور على جدران غرفتي، أحطتني به.

كان وجهه يطل عليّ من كل صوب، على باب الغرفة، فوق النافذة، تحتها، قرب فرشتي، فوق خزانة ملابسي، في المطبخ، كان يحيط بي أنّى نظرت.

تابعت الكتابة.

كنت أحتضن الرواية المطبوعة، روايته، روايتي، لا أعرف. إنها روايتي التي صارت له. كنت أحتضنها لأنها تحمل صورته. وأنام وهي، كتميمة، تحمي أحلامي ومناماتي.

منذ زمن بعيد لم أعش هذه الحالة. لا أذكر إن كنت قد عشتها فعلاً ذات يوم، أو أنني، كما تقول ميريام، حلمت بهذا.

إنه الرجل الأول، من لحم ودم، الذي يدخل سكني، يدخل غرفتي، يلمس شعري، يلمس خَدّيَّ، يمسك بيدي.. أول رجل.

كل الرجال الذين عرفتهم قبله، كنت أصادفهم في مكان ما، في العمل، في الشارع، في السوق، في السينما، في المكتبة، في الحديقة.

حين أكون وحدي دوماً في تلك الأمكنة، يعجبني شاب ما، فأجلبه معي إلى البيت. لا أحتاج للكلام معه، ولا إلى موافقته.

كلما قابلت رجلاً وسيماً، ولفت نظري، صنعت منه نسخة في داخلي، وأتيت بالنسخة لأعيش معه قصة حب لعدة أيام. أفيق معه، أخرج معه، نتناول الطعام معاً، ويذهب معي إلى العمل، يوصلني، ثم يعود في آخر النهار لاصطحابي.. وغالباً ما تنتهي قصة الحب بيننا، بعد أيام قليلة من العشق والشوق والكلام والأحلام والموسيقى.. بممارسة الجنس. أقصد، بممارستي للجنس معي. ما إن أصل إلى الذروة، حتى يتبخر الرجل، وتتلاشى صورته، وأعجز عن استعادة مشاعر الحب والشوق معه، حتى وإن قضينا معاً عدة أيام، كان يشاركني فيها غرفتي وطعامي. ولا يتبقى لي سوى أصابعي في مكان متعتي.

ها أنا أكتب هذا الآن.

سيكون هذا موضوع كتابي القادم.

الرجال الذين ينامون معي، وما إن أصل إلى أقصى اللذة، حتى يموتوا.

ساباتو. ولن أدعوه بغير هذا الاسم، هو الوحيد الذي لم يمت، ولن يموت، مهما مارست معه الحب، لأنني عرفته بالفعل.

اشتريت ستائر شفافة، كأنها من حرير، بألوان أرجوانية، تشبه لون الستارة التي تظهر خلفه في صورته المنشورة على غلاف الرواية.

ستائر بألوان متماوجة، متدرّجة، من الأحمر إلى البرتقالي إلى الوردي، وتركت صوره تبدو من خلف الستائر المتهدّلة على جدران الغرفة.

اشتريت شموعاً معطّرة، ملوَّنة. أصبحت الغرفة مكاناً أسطورياً،

مكتسية بستائر ملونة بتدرجات الأرجوان، ومضاءة بشموع، ومعطّرة. مكاناً يليق بابتسامة الرجل المعلّق في كل مكان من الغرفة. على الباب وضعت أكبر صورة له، صورة بحجم الباب، صورة تغطي الباب، صورة، هي الباب.

كل شيء جاهز لاستقباله في كل لحظة.

أعود من العمل، ألتهم الحساء الذي أعدّته غالية، ثم أضع إبريق الشاي الكبير بالمريمية الذي تعده لي فلورنس بعد الغداء، أدخّن، وأكتب حتى الصباح.

أنام لساعتين أو ثلاث فقط. حبّه والكتابة، يمنحانني معنًى جديداً للعيش.

شخوصي يساعدونني على الكتابة.

يعيشون تحت جلدي، يتنفّسون تحت بشرتي، أحكّ جلدي، فيظهرون.

أقشرني ليظهروا.

أصل إلى البيت، أخلع قشرتي الخارجية، وأتركهم يتجولون بحرية. يتشاجرون أحياناً، أصالحهم. أغضب، يصالحونني.

أفيق أحياناً على مزاحهم، حيث يحاول أحدهم سحب المخدّة من تحت رأسي. يقهقهون، لا يرغبون في النوم، لا ينامون ولا يتركونني أنام.

أنتقم منهم حين أغادر إلى العمل، فأتركهم وحدهم طيلة النهار.

لا أعرف ماذا يفعلون في غيابي، وهم لا يجرؤون على اللحاق بي أو الخروج معي، حين أعاقبهم بحجزهم في البيت. حين يخرج بعضهم معي. يختبئ تحت جلدي.

يزعجهم ضوء الشارع، أصوات الناس، حضور البشر، ضجيج السيارات. كل التفاصيل الواقعية، البشرية خاصة، تعيقهم، تخنقهم.

يحبونني حين أكون في البيت، يشعرون بالألفة وبأنني لهم. في الخارج، يشعرون بأنهم يفقدونني، لا يتعرفون إليّ كما أنا.

لا أعرف إن كانوا يخرجون في غيابي، لا أظن ذلك.

حين أضجر، يزوّدونني بالحيوية، يمدّونني بالقوة، يمنحوني أفكاراً جديدة. يضخون صوراً مبتكرة في مخيلتي.

ينصبون منصة مسرحية في الغرفة. يلصقون الفرشة جوار الباب. تصبح الغرفة أوسع. تتحول الفرشة إلى خشبة مسرح. يمثلون شخصيات وحوادث مبتكرة. بل يصنعون شاشة سينما في غرفتي. أستلقي قبالتهم، على السجادة الصوفية السميكة التي حاكتها جدتي بالمخرز. أتفرج عليهم، وأسرق منهم لقطة أحياناً، فأكتب ما يقدمونه على الشاشة، أو الخشبة.

أتفرج عليهم، يتحرّكون في كتلة من الضوء الرمادي، بلون الشاشة السينمائية. نعم، تماماً، السينما في بيتي.

ليس لدي جهاز تلفزيون، ولم أذهب منذ سنوات، نسيت عددها، إلى صالة عرض سينمائية. ولا أفتقد ذلك.

حين أرغب بمعاقبتهم، أفتح الباب، مزيحة الخشبة، وأخرج. فيتجمّدون في أمكنتهم، في الحركة الأخيرة لكل منهم، بانتظار عودتي، لتدب فيهم الحياة من جديد، ويتابعون، أو ينصرفون.

يخرجون من علب الطعام، من خيوط ملابس، من "خراطيش" حبر أقلامي، يتناسلون، يتضاجعون، يتشاجرون، يعشقون، يغضبون، يطهون..حياة كاملة يحيونها داخل حياتي.

أكتب وأكتب.

مضى شهر على عودتي إلى العمل، أكتب أكثر من قبل. كما لو أن كتابي الأول، كان تطويعاً وتمريناً لأصابعي، ولمخيلتي.

كتبت بغية الحصول على رضاه، على بريق عينيه، ذلك البريق الذي شكّل فرحي.

الآن، الكتابة تجرّ ذاتها. الكتابة تجرّ الكتابة، الكتابة هي الحصان، وهي العربة. العربة محمّلة بالكثير، وها هو حصاني يسير ويتقدّم. كأن القلم/ الحصان، ما إن ينطلق على الصفحة، حتى يجرّ سيل الكلمات المحشوة في بطون شخوصي. تنسلّ خيوط الكلمات، تخرج من بطونهم، من أحشائهم، من أمعائهم، من رؤوسهم. شخوصي المتحررون من الدم واللحم والدهن. أمعاؤهم نظيفة، لا تحتوي سوى الكلمات، الكلمات التي حبسوها مطولاً، وها قد حانت فرصة التخلص منها، عبر الورق، عبري.

نكتب من دون توقف، كما لو أننا اتفقنا على أن نكتب، حتى الثمالة! حتى الفناء!

نجهّز له كل هذا الرصيد. نخزّن له ما يدهشه. حتى إذا جاء ذات يوم، ووقف أمام هذا الباب، سنحظى بلمعان عينيه، سيقول سعيداً:"كل هذا!"، وسأشعر بالفخر.

لا أهمية للكتابة من دونه. ما هي الكتابة في نهاية الأمر، إن لم تكن من أجله؟ إني، وإنهم، وإنهن، نحن جميعاً، خلقنا لأجله، لنكتب له. ما يهمني إن بقيت الكلمات والقصص حبيسة بداخلي، ثم ماتت معي. أليس من الأفضل أن تخرج وتحيا، حتى ولو نشرها باسمه. وما الضرر، المهم أن شخوصي يملكون فرصة للخروج إلى العالم، يتحقق

وجودهم. ليس مهمّاً اسم الكاتب على الغلاف، المهم أن تخرج الحكايات ليقرأ العالم، ويتعرّف إلى أبطالي، إلى ماتيلد وفريدريك وكمال وإيمان وحازم وستيفان. لا يهم أن يكون كاتب الرواية هو أنا، أو هو. المهم هو الرواية، لا الروائي.

اليوم، بعد شهر ونصف من عودتي إلى العمل. بعد ثلاثة أشهر ونصف على اختفائه من حياتي، بعد أربعة أشهر ونصف على لقائنا، اليوم، قرأت خبراً في الجريدة، التي صرت أشتريها كل يوم، متتبعة أخباره وأخبار نجاح كتابه، قرأت خبراً أثلج صدري: بعد كل هذا الانتظار، سأراه!

الخبر يتحدّث عن مؤتمر صحافي مع الروائي، صاحب الرواية الأكثر مبيعاً لهذا الموسم، والذي تخطت مبيعاته رقماً قياسياً لمبيعات الرواية في السنوات الخمس الأخيرة. مؤتمر يليه حفل توقيع.

يا للسعادة! سنراه يا أولاد، سنراه يا بنات! خاطبت نزلائي الذين يسكنونني، وأنا أمرّ أصابعي بفرح، على جسدي، مداعبة خلاياي التي يسكنونها ويسكنها. ارتعد جسمي واقشعّر في جميع أنحائه، حتى دمي كان سعيداً. سنراه، وسأستمتع حتى الثمالة، ببريق عينيه.

- 2 -

صديقتي تؤلف القصص

لم يعرف، لم يتوقع للحظة، لم يتخيل، لم يخطر في باله أن تلك الأوراق التي لم يكمل قراءتها حتى، ولم يفهم الكثير مما فيها، ستقلب حياته هكذا.

حين نادى سكرتيرته، وطلب منها تنضيد تلك الأوراق على الحاسوب، فعل هذا بدافع المجازفة، وحب الاكتشاف.

حين أنهت السكرتيرة، -التي مصادفة تدعى ماتيلد- تنضيد الأوراق، والتي أصبح حجمها الرقمي أكبر من الورقي، حيث تكتب "أبدون" بخط صغير دقيق، إلا أنه مرتب ومقروء.

(سيدعوها أبدون بعد اليوم مصرّاً على الاسم، وعلى الرغم من أنها رغبت أن يدعوها ميريام على اسم صديقتها. إن امرأة مثلها، لا يمكن أن تكون بالنسبة له غير "أبدون"، الملاك الذي سيصنع جحيمه هو أيضاً).

حاول إعادة القراءة، من النسخة المنضّدة والمطبوعة على الورق، إلا أنه لم يفهم أكثر مما فهم في النسخة الورقية الأولى، التي خطتها

"أبدون". لم يشعر بأنه أضاع وقته وماله، إذ لديه منهما الكثير، ولم يندم.

ترك الأوراق في إحدى زوايا المكتب، حين فاجأته ماتيلد بعد يوم واحد من انتهاء التنضيد وسألته: «ما أخبار الرواية؟ هل أرسلتها إلى النشر؟". لم يكن متأكداً ما إذا كانت تلك الترّهات والكلام الغامض يعتبره البعض رواية. قال لماتيلد بغرور المثقفين المهمين "لا، لستُ مقتنعاً بها".

اقترحت ماتيلد عليه أن تعرض الرواية على زوجها "إنه يقرأ كثيراً، وهو مولع بالرواية البوليسية على الخصوص".

استغرب أن ترى ماتيلد في تلك الأوراق رواية بوليسية، إلا أنه ليس لديه ما يخسره، فوافق على أن يقرأها زوج ماتيلد، ويقول رأيه.

الرجل الموغل في القراءة، الذي مصادفة يدعى عزيز، المعجب إلى درجة الهوس ببول أوستر، جاء لاهثاً في اليوم التالي فقط، إذ قرأ كل تلك الصفحات التي تجاوزت الخمسمائة صفحة، في ليلة واحدة، جاء كأنه قادم من فيلم مليء بالإثارة والدهشة، وقال لساباتو: "مسيو، كاتب هذه الأوراق هو أحد اثنين: إما مجنون، أو عبقري مغمور".

لمعت عينا ساباتو بالبريق ذاته، آه لو كانت هنا!

أضاف عزيز: "لم أقرأ في حياتي رواية بهذا الشغف، إنها مزيج رائع من الشكل المختلف والمضمون. لا أعرف إن كانت تلك التقنية التي كُتبت بها الرواية مقصودة وواعية لدى المؤلفة، إلا أننا في النهاية نستطيع أن نعتبر الرواية تحفة أدبية، إضافة مهمة للأدب البوليسي الوجودي". فغر ساباتو فمه مندهشاً، لم يفهم كلمة مما قاله معجب بول أوستر.

أضاف الآخر من جديد: "الأدب البوليسي الوجودي هو بالضبط ما يمكن أن ينطبق على هذه الرواية؟ ولكن من هي مؤلفتها؟".

تجاهل ساباتو السؤال، متضايقاً أن الآخر، ذكر ولمرتين، جنس المؤلفة: امرأة. أضاف عزيز، مهووس أوستر:"هذه الرواية مكتوبة بحبكة ذكية. إنها مجازفة أدبية. ثمة فصول مشغولة بعناية، وثمة فصول مفككة ومبتورة، ثمة جمل غير منتهية، وعبارات غامضة، وأحداث عالقة.. حوادث تبدأ من دون أن نفهم كيف، حوادث تتمم حوادث سابقة لم نقرأها ولم نعرفها. ينتاب القارئ إحساس غامض بأن هناك مجموعة من المؤلفين تشاركوا في كتابة الرواية، ولكن الشخصية الأساسية، أعني المؤلف الرئيسي: امرأة، إلا أن ماتيلد أكدت لي أن الرواية مدوّنة بخط اليد، بخط واحد طيلة الرواية".

من قبيل المجازفة أيضاً، بما أنه لن يخسر شيئاً، أرسل ساباتو الرواية إلى صديق له، يفهم في قضايا النشر، فأرسلها الآخر بدوره، إلى ناشر معروف في المدينة.

في تلك المدينة الكبيرة، التي تشبه القاهرة، أو نيويورك، أو طوكيو، أو باريس، أو لندن، أو بيروت. وبعد ثلاثة أيام من استلامه لمخطوط الرواية، اتصل الناشر بساباتو، مقترحاً عليه مناقشة عقد الطباعة والنشر.

***

كان ساباتو يقود سيارته نحو المكتبة الكبيرة وسط المدينة، لحضور المؤتمر الصحافي وحفل التوقيع.

كلما حاول التخلّص من وطأة الشعور بالذنب، لتمتعه بما تحقق له من نجاح وشهرة، عادت إليه تلك الصور، لترسخ إحساسه القاتل بالإثم، ويتذكّر خاصة اليوم الذي جاءت فيه باكية، ورمت الأوراق أمامه، بقهر وانصرفت حزينة.

كان يؤلمه الشعور بأنه نذل أو لص. لكنها لم تكن عابئة بالنشر، لم يعنِ لها النشر والشهرة وآراء النقاد والقراء، واهتمام الصحافة، وحفلات التوقيع.. كل هذا لم يكن يهمهما.

قالت له هذا الكلام مراراً: "أنا أكتب من أجل المتعة، ولا يهمني الآخر". بل وأكدت له باستخفاف، أنها لا تقوم بعمل كبير، شاق، متعب. إنها تتسلى بروي القصص، فهي لا تملك شيئاً آخر تفعله للتسلية. ليس لديها جهاز تلفزيون، ولا نقود كافية لشراء الكتب، أو الذهاب إلى السينما، وليس عندها أصدقاء تخرج معهم، أو تزورهم ويزورونها. ليس لديها إلا متعة وتسلية الروي، لتمضية الحياة، وتمريرها بسلام، حتى النهاية.

"لا أحب الحياة، وأخاف من الموت، ولا حلّ أمامي. لهذا أتسلى بروي القصص، وكلما تعقدت الحبكة، وصعب بناؤها، ازدادت متعتي.. أنا كائن قلق، لا أنام بسهولة، وأنام قليلاً. أحتاج إلى حكاية قبل النوم، أرويها لنفسي، أخترعها جديدة ومختلفة، حتى أتمكن من الذهاب في الغفوة. إن لم تكن الحكاية شيقة وجديدة لا أستطيع أن أنام. ليست لدي أم تحكي لي قصصاً قبل النوم، لهذا فأنا أمي التي تحكي لي. اسمع، أنا لا أفعل الكثير، لا تقلق، أنا أدوّن فقط قصصي التي أرويها لي في جميع الحالات، إن عرضك بالنسبة لي، لا يكلّفني سوى نقل هذه القصص من رويها الشفوي، إلى تدوينها. ولأن التدوين وأنت تعرف ذلك يستلزم جهداً أكثر من الروي الشفوي، أنا أستحق المرتّب الذي تدفعه لي".

يذكر كلماتها جيداً، يذكر أنها قالت كل ذلك الكلام، وأنها قالت أيضاً إنها تكره شروط العيش، العمل، الحاجة إلى الطعام، فواتير الكهرباء والماء، الضرائب، المواصلات.. كل هذه شروط تجبرها

على مغادرة قصصها، لتعيش، لتأكل وتشرب، وتدخّن، وتتنقّل، وتستحم، مع أنها تفضّل أن تتحوّل إلى قصة، إلى شخصية محلوم بها، بدلا من وطأة العيش اليومي.

رن هاتفه، كان ناشره يستعجله، الصالة تعجّ بالحضور، وقد تأخر لأكثر من نصف ساعة.

تذكّر ما قاله الناشر في أول لقاء لهما:

ـ في الحقيقة، لم أتوقع أن أرى أمامي كاتباً رصيناً مثلك. توقعت أن أرى جنيّة.

وحين استغرب ساباتو، أضاف الناشر/ ربما ناشرة:

ـ إن أحداث الرواية مكتوبة بروح امرأة، أنت تدهشني بشدة، كيف تملّكت كل هذه المهارة، لتكتب روايتك وكأنك امرأة.

حاول أنْ يتذكّر ما قاله الناشر. مفردات يسمعها للمرة الأولى في حياته، فهو لم يكمل قراءة رواية في حياته، مهما حاول، إذ تُضجره القراءة، خاصة الروايات.

قال له الناشر: "إنها مزيج من عدمية كافكا، وعبثية بيكيت، بل مزاوجة بين مسخ كافكا وأبله دوستويفسكي، بل شيء آخر لا أستطيع توصيفه. إنها وصفة جديدة في الرواية الوجودية اللامنتمية. إنها تكرّس البطل القلق، المهزوم، المعزول، الخائف، المصدوم، المهزوز. إنها بصقة في وجه ضرورات الحياة، في وجه اليوميات التافهة. إنها رواية عجيبة، خليط من الفانتازيا بالشعرية بالبوليسية بالواقعية السحرية. إنها رواية عجيبة، رواية روايات غير مكتملة، ومن هنا تكمن أهميتها أيضاً، في هذا البتر المباغت للعبارات والحالات والأشخاص والأحداث، بتر يكرّس عزلة الكائن الهامشي المنفي في وحدته، الذليل في هلعه من

العالم، في ارتباكه من الوجود. نهايات عالقة، تشبه لامنطقية العيش".

رن هاتفه مجدداً، فأخفى صوت الناشر في ذاكرته. جاءه صوت ميشيل هذه المرة يستعجله، لأن الصالة امتلأت ولا يزال الجمهور يتوافد وقد جلس نصف الحضور مفترشين الأرض، لأن المقاعد لم تكفِ الجميع، وأن عليه أن يسرع.

ضحك بسخرية بعد أن أغلق الخط.

حين التقى ميشيل في العام الفائت، في مثل هذا الشهر تقريباً، كان ميشيل قد حصل على جائزة مهمة في الرواية، وتعامل معه بفتور واستعلاء وهو يقول: "القيمة الحقيقية لأحدنا هي في الأثر الذي يتركه خلفه، لا في المال والسلطة".

كان ميشيل ينتقم من سنوات التفوّق المادي والثراء الذي أُحيط به ساباتو منذ ولادته.

في ذلك اليوم، شعر في داخله بأن ميشيل وجّه إليه صفعة. منذ تلك اللحظة، كان يحلم، رغماً عنه، بأن يفعل شيئاً مهماً في مجال الرواية، ليبصق في وجه ميشيل، ويرد اعتباره.

حين التقى ميريام مصادفة في سهرة جمعتهما، وهي قريبة أحد أصدقائه، وكان قد أسرف قليلاً في الشرب، في تلك الليلة، وتبادل مع ميريام بعض الأسرار الصغيرة، التي تفلت من أحدنا حين يشرب، بينما يضبطها حين لا يكون في حالة السكر. من جملة ما قاله لها، وقد اندهش وهو ينطق بتلك الرغبة التي لم يجرؤ يوماً على التلفظ بها:

ـ أحلم بأن أكتب رواية.

إلا أنه لم يضف: مثل ميشيل. قالت له ميريام، سكرانة هي الأخرى مثله:

ـ عليك بصديقتي، إنها تؤلف القصص كل يوم.

حدثته ميريام عنها، عن صديقتها في العمل، التي تشتغل في المستودع، التي اقتنت الشال المرقّط، أو كما نسميه "جلد الحيّة" إعجاباً بفيلم جاكلين السعيدة، والتي تقرأ ساباتو، وتحتفظ برواية "أبدون" في حقيبتها، أينما تنقلت، وكأنها تعويذة حامية ومحصّنة لها.

تذكّر التحذير الذي أطلقته ميريام السكرانة: "المهم ألا تنام صديقتي مع بطل قصتها، فإن فعلت، انتهت الحكاية وتبخّرت".

كانت كلمات ميريام تصدر عنها بين الضحك والسّكر (يعتقد أنها كانت تشرب الويسكي بالثلج، ولكنه ليس متأكداً). حدثته كيف تنتهي قصص الحب التي تعيشها برعشة من تحت أصابعها، وهي تعبث ببظرها، وفتحة مهبلها.. وتتبخّر الحكاية.

لا يريد الشعور بأنه نذل إلى هذا الحد، لقد قدّم لها خدمة أيضاً، أراحها من العمل اليومي الذي تكرهه، وجعلها تدوّن العالم الذي تحياه، وتحبه.

ألم تقل له: "أنا حبلى بملايين البشر، وليس لدي الوقت لولادتهم"، ألم تشكُ من ضغط العمل والحاجة إلى المال، الأمرين اللذين يؤجلان خروج أبطالها على الورق، فيتناسلون ويتوالدون ويتكاثرون. وأنها تزدحم بهم، ولا تعرف كيف تتخفّف منهم. ألم تقل إن العالم رمادي لأن قصصها الملونة تعيش بداخلها، وأن العالم سيصبح ملوّناً حين تلد أبطالها. ألم يساعدها على تحقيق حلمها بولادة شخوصها على الورق، أكان نذلاً؟

نظر إلى باب المكتبة وقد غطّت صورته "البوستر" الكبيرة الجدار الرئيسي للمكتبة، ورأى الازدحام في الشارع، أمام المكتبة.

ضحك متهكمًا من نفسه، ومن الجموع التي احتشدت لحضور مؤتمره الصحافي.

قال لناشره، حين حدثه عن المؤتمر: "لن أتكلم كثيراً"، وأجابه الناشر: "أتفهّم ميلك للصمت، أنت مبدع، والمبدعون ينفرون من شرح إبداعهم".

جلس في مكانه إلى المنصة المخصصة له، يستمع إلى تحليلات النقاد لروايته، لعرض الصحافة، لاستفسارات القراء، ومداخلاتهم.

أجاب باقتضاب على بعض الأسئلة، واعتذر عن أكثرها، لأنه ميّال لترك التفاسير تتعدّد وتتنوّع. سألوه عن الإلهام، كان يتذكر كلماتها، ويكررها، ينطق بها تمامًا كما كانت تفعل: "أشعر بأنني كامرأة حبلى بملايين البشر، الكتابة هي فقط محاولة تدوين لمساعدة هؤلاء، على الخروج إلى الحياة".

كانت جالسة في الصالة، مبهورة بوسامته. شعره الأملس الأسود، الناعم اللمّاع، الطويل نسبياً، المتدلي حتى كتفيه. غرّته التي كان يعبث بها بأصابعه ويرجعها إلى الخلف كلما سقطت فوق عينيه. قميصه الأزرق السماوي بلون عينيه. لحيته التي تركها تنبت قليلاً من قبيل العبثية الفنية. كلماته. كلماتها التي يكرّرها فينبهر بها الصحافيون والجمهور.. كان أكثر وسامة مما تخيلته، ومما كان من قبل.

نهض بعد نهاية المؤتمر الصحافي، متجهاً إلى طاولة التوقيع.

اقترب منه أصدقاؤه، قبّله ميشيل بحرارة وبإعجاب: "أنت بطل حقيقي، اعذرني لأني كنت أجهل قدرك". كلمات ميشيل جعلته يسير كطاووس متعالٍ على الجميع، متميز، مختلف.

هرع الحضور للاصطفاف واحداً تلو الآخر، منتظرين التوقيع.

لمحت ميريام صديقتها، صرخت بها وقد رأتها تصطف خلف مئات المصطفين:

ـ ماذا تفعلين هنا؟

ـ كما الآخرين، أريد الحصول على توقيع الكاتب.

ـ ولكنك ستنتظرين ساعتين على الأقل حتى يصلك الدور!

ـ ولتكن أربع ساعات، خمس.. المهم أن أحصل على توقيعه.

ـ لا، تعالي معي، أنا أعرفه جيداً، نذهب إليه غداً في منزله أو مكتبه، يوقع لك نسختك، وتتحدّثين معه أيضاً بهدوء.

هزّت رأسها رافضة الاقتراح:

ـ أفضّل أن يوقّع لي اليوم، لن أنتظر حتى الغد، من يعرف يا ميريام، ربما لا يكون هناك غد.

تركتها ميريام غير مستغربة، فهي تعرف غرابة طباعها. وتعرف عيشها السطحي، كما تدعوه، لأنها غارقة في عيشها الداخلي، الحقيقي.

كانت سعيدة وهي تلمحه من بعيد، يبتسم للقراء، يتبادل معهم بعض الكلمات، الصور، يصافحهم، يوقّع لهم. وكانت تزداد سعادتها، كلما اقتربت خطوة، بانصراف أحدهم، وازداد وجهه قرباً منها.

تأملته، لثلاث ساعات، حتى قارب دورها.

كانت قد بدأت تسمعه يردّد ما يكتب:

ـ إلى أمير، مع تقديري.

ـ إلى رشا، مع حبي

ـ إلى جورج، مع أمنياتي.

كان يبدو عليه التعب والضجر، فتوقّف عن تبادل التحية مع القراء،

واكتفى بترك رأسه منخفضاً، يلتقط اسم القارئ، يدوِّن الإهداء، من دون أن يرفع وجهه، ليراه.

ـ إلى سابين، مع مودتي.

ـ إلى بول، حبي.

ـ إلى سيسيليا، قراءة ممتعة.

إلى..

إلى..

إلى..

حين وقفت أمامه بثوبها الأرجواني، كاد يسقط من التعب والإرهاق، وقد بدأ يتأفف، سألها عن اسمها، من دون أن يرفع رأسه.

كتب إلى. ثم سأل: إلى من؟

ـ مها.

كأنه يعرف هذا الصوت، رفع رأسه فرآها أمامه. ابتلع ريقه الجاف، وشعر بدوار، ثم أعاد رأسه إلى صفحة الكتاب. وكتب:

إلى مها،

بكل امتنان.

قرأت ما كتبه، مدت يدها مصافحة وهي تقول:

ـ أنا الممتنة لوجودك البديع في هذه الحياة.

لم يتمكن من الابتسام، نظر إليها وقد زاغت عيناه قليلاً، من التعب، والدهشة معاً.

اقتربت منه وهمست له:

ـ إن رغبت بالمزيد، تعال، لدي الكثير من هذا.

قالت ذلك وهي تشير إلى الكتاب.

استدارت وغادرت مختفية بين الحضور الكثيف.

كاد يسقط من الإرهاق والارتباك.

أما هي فقد غادرت المكتبة تطير من الفرح. متأكدة من أنه سوف يأتي ذات يوم.

اشترت شطيرة دجاج مع المايونيز، من آخر ما تبقى لديها من ماله.

أحست بسعادة تغمرها، وهي تلتهم الشطيرة الساخنة، وتقبض باليد الأخرى على الرواية، روايتها، الموقّعة بخط يده.

ما الذي ينقصها في هذه الحياة لتكون سعيدة؟

بقي أسبوع لنهاية الشهر، وستتقاضى راتبها. لديها طعام يكفيها لأسبوع. لا مشكلة إن عادت مشياً على الأقدام، على الأقل، ستجد إبريقاً من الشاي الساخن لدى وصولها، مع المريميّة ربما.

وستنام هذه الليلة، معانقة الرواية التي عليها صورته، وفوق هذا توقيعه. فما الذي ينقصها لتكون سعيدة!

الرواية الثانية

حور العين

- 1 -

وهم الشهرة

تحولت حياتي إلى «لا حياتي» بعد الكتاب. صرت شخصاً آخر. صرت أحتاج إلى لحظات استرخاء خاصة بي، كأنني تحولت إلى آلة، أزرارها مُلك الآخرين، يضغطون عليها. أحدث كتابي ضجة كبيرة، ترجمات، دعوات سفر، مؤتمرات للرواية، محاضرات، ورشات كتابية، ندوات تلفزيونية، كاميرات، صحافة.. خمس سنوات من الضجيج، وكأنني أعيش داخل خلية نحل، لا تكفّ عن الصخب، نحل في رأسي!

في السنتين الأخيرتين، أرهقني كتابي، خاصة بعد أن وقّعت على عقد تحويل الرواية إلى السينما، صاروا يتصلون بي في كل صغيرة وكبيرة، اختيار الممثلين، الاكسسوارات. كان المخرج القلق، يحاول إشراكي في جميع التفاصيل.

أفتقدني. هذا ما أشعر به بعد خمس سنوات من طباعة الرواية، والشهرة التي حصلتُ عليها، فصيّرتني كائناً آخر، كائناً خارجياً، لا يهتم الناس كثيراً بما كتب، بل يتقرّبون منه لتعلّم وصفة النجاح، والشهرة.

كنت أشعر بأن من حولي مبهورون فقط بنجاح الرواية جماهيرياً ونخبوياً، تلك كانت الوصفة الغريبة التي نجحت تلك الصبية في صناعتها، أبدون، كما قرّرت أن أدعوها. لقد فرّت أبدون من كل هذا البريق السطحي، وتركت لي الجمهور والمجد المزيّف والمال.

كنت أشعر بحالات من الكآبة المباغتة، بسبب محاصرة العالم لي. ليس إعجاباً بما كتبت، أعني ما كتبت أبدون، بل تملقاً للاستفادة والتعلم: كيف تصبح عالمياً منذ الرواية الأولى؟

سخر ويليام مني، حين أخبرته في جلسة شراب امتدّت، ونحن نسمع موسيقى محرّضة على النوستالجيا والحزن والاعتراف، بحكايتي مع أبدون. انفجر ويليام ضاحكاً: هذا موضوع يصلح لرواية جديدة، أنت تتخيل وتصدّق خيالك.

وحين انهرت مرة بالبكاء، لأن كل هذه الشهرة والمال، من حق أبدون، التي تعيش في غرفة قذرة، وأنني شخص قذر، اقترح عليّ أن أذهب إلى منزلهم الريفي البعيد والمعزول، للاستجمام والاسترخاء بعيداً عن العالم.

في قرية «حور العين»، حيث كما قال لي السيد يعقوب، ناشري الأميركي من أصل لبناني، كل النساء فيها جميلات، لهذا سميت بحور العين، ولأن فيها عين ماء، تجتمع حوله صبايا القرية، شهقت مندهشاً (كما في السينما)، هزّ يعقوب برأسه، وقال: اذهب، أفرغ رأسك من النحل، ربما تبدأ روايتك الجديدة هناك.

كان همّ يعقوب أن أنجز روايتي الثانية، حيث حققت الأولى نسبة مبيعات بالإنجليزية، تكاد تنافس بول أوستر، الحلم الذي كان يداعب مخيلة يعقوب، كي يستدرج كاتباً مثله إلى داره، فمنحته الحياة كاتباً من منطقته، ساباتو، كما أحب أن يدعوني الجميع، كرمى لأبدون.

أمام ذلك المنزل الريفي المنزوي في ضيعة منسية على تخوم الجغرافيا، توقفت سيارتي في شهر تشرين الثاني الماطر. عند الباب الحديدي الكبير، سمعت صوت نباح «ديب»، كلب ويليام الذي تركه في البلدة، لدى العم ياسين وعائلته.

فُتح الباب الحديدي الكبير، وظهر العم ياسين بجلابيته الفضية، وهلل فرحاً بحركات يديه، أغلق البوابة خلفي، بعد أن دخلت بالسيارة، وأوقفت المحرك ونزلت لمصافحته.

- كل شيء جاهز أستاذ. السيد يعقوب اتصل بي، غيرت الحاجّة (يقصد زوجته) الشراشف والمخدات ونظّفت البيت، وحضّرت لك أكلات ستعجبك.

يومي الأول في حور العين هادئ. رائحة الريف الطازجة تُنعش قلبي. بدأ أزيز النحل عن التوقف داخل رأسي.

يومان، ثلاثة، أتجوّل في حديقة البيت. أشجار كرز، توت، تفاح، وأنواع عديدة، تنتظر الربيع لتزهر. كل شيء هنا طازج، الحياة طازجة، تأتي من منبعها، من عند الله، في السماء النقية الحقيقية فوقي، إلى هنا، حيث أقيم لأيام أو أسابيع.

حليب الصباح، تأتيني به زوجة العم ياسين، صبحية. تلك المرأة الستينية القوية، تحلبه من البقرة. أراها قبل أن أنزل من غرفتي، حيث تذهب إلى البقرة، في مرعاها المتاخم للمزرعة، وتأتيني بحليب لم يمرّ بالآلة. من ضرع البقرة، إلى النار، إليّ.

الخبز أيضاً تحضّره صبحية في الدار، دارهم أولاً، ثم طلبت منها أن تخبزه هنا، فأنا أحب رائحة الخبز المخبوز للتو.

الحياة هنا حقيقية. أتنزه أحياناً مع ديب، الذي كسبت صداقته

بصعوبة. ولكن بمرور الأيام الأولى من الأسبوع الأول اعتاد وجودي، ثم صار يقترب مني حين أدعوه وأنا على الطعام، فنتقاسم بعض الطعام معاً، إلى أن صار يرافقني حين أخرج مشياً على الأقدام.

كنت أعتقد أن ياسين وصبحية بلا أولاد، إلى أن نهضت مرة في الثانية بعد منتصف الليل تقريباً، وقد أنهيت الفيلم المملّ، ولم تكن لدي رغبة بالنوم، هبطت إلى الطابق السفلي، حيث المطبخ، لأجهز فنجاناً من القهوة، لأن صبحية تنام باكراً، في الغرفة الخاصة بها، هي وزوجها، قرب باب المزرعة، وحيث يمضي ديب لياليه حارساً البوابة، وغرفة ياسين وصبحية معاً. حين دخلت المطبخ، خفق قلبي من المفاجأة، كما اعتقدت.

- 2 -

الحياة الهانئة

أنا سعيدة يا فريدا.. أعيش كما لو أنني أحلم.

لا شيء ينغّص حياتي.

أقرأ في كتبكم الكثيرة، وأسرق أوراقك البيض لأدوّن عليها كتاباتي.

الحياة سهلة هنا، لا تشبه تلك التي تشرحها الكتب المعقّدة. لا شيء مما يحدث في الخارج، ويسبب المتاعب للبشر، موجود هنا. لماذا يشعر العالم بالكآبة: الحرب؟ البطالة؟ الفقر؟ الحب؟ الإنجاب.. كل هذا غير موجود في عالمي هنا. أعمل في المزرعة، ثم أكتب، وأعيش كما لو أنني صاحبة هذا المكان، وسيدته، فأهلك جميعًا غادروا.

كان والدك يأتي من وقت لآخر ليرسم هنا، تذكرين، يقول إن الضيعة تُلهمه. ولكنه منذ ذلك اليوم، حين رحلتِ معه للمرة الأخيرة، لم يأتِ ولا حتى ويليام. لا أحد. أعيش كأنني سيدة هذا القصر. في الغرفة الصغيرة قرب المطبخ، لدي أريكة جميلة، فرشت فوقها سجادة كانت أمك سترميها لأنها تمزقت قليلاً. إنها من ذلك السجاد العجمي

الفاخر الذي أحب ألوانه، أخذتها من بين كومة الأشياء المعدّة للرمي، وخبأتها في بيتنا هناك، ذلك الكوخ البعيدبجانب عين الماء.

وحين قررنا أن نعيش في بيتكم، إذ سمح والدك لأبي أن يسكن في الغرفة التي يسميها غرفة الحارس، ومن دون أن يعرف والدك، اقتنع أبي، أن أنام على الأريكة في الغرفة الصغيرة جوار المطبخ، والتي كانت تنام فيها في ذلك الزمن، حيث كان البيت يعجّ بكم، تلك الخادمة الأثيوبية السوداء، والتي يدعونها المربّية. مربّيتك يا فريدا. أنا أنام في غرفتها الآن، من دون أن يعرف أحد بهذا، سوى أبي وأمي.

ماذا كنت أقول؟ نعم، الفقر، لا أشعر بأنني فقيرة أو حزينة. ليست لدي أسباب الحزن التي تجعل الآخرين يشعرون بالكآبة. لا يوجد رجل في حياتي أتعذب في حبه، أو يقهرني، أو يضطهدني كما يفعل الرجال في القصص. ليست لدي أية مشكلة، ولا أحلام أنتظر تحققها، أنا أكتب، وأعيش لأكتب، وأنتظر انتهاء اليوم، لأكتب طيلة الليل. أنام في ساعات الفجر الأولى، أربع ساعات من النوم تكفيني. هكذا أنا، لا أحتاج إلى النوم، بل إلى الحلم والوقت، لأستعيدك. نعم، أستعيد ما عشناه.

أنهي العمل في المزرعة كل يوم، وأحضر هذه الأوراق، وبعد أن ينام والداي، أكتب.

هل تعرفين ماذا أكتب؟ طبعًا تعرفين، إنها حياتنا.

أروي القصص التي كنا نرويها. تذكرين مجلات الموضة والأزياء الرجالية، التي كان يحضرها ويليام إلى المزرعة في الصيف، كنا نقلب صفحاتها، وفي كل يوم نحكي حكايتنا مع أحد الرجال. نختار أحدهم، بطل حكاية ذلك النهار.

كانت كل منا تختار الرجل الوسيم الذي يعجبها، وطالما اختلفنا

على الشخص ذاته، ولجأنا إلى القرعة.. تذكرين طبعًا. نعطي لكل رجل اسمًا، ونخترع لكل منا اسمًا مختلفًا، ونؤلف الحكاية.

كانت إجازة الصيف مليئة بالعمل والسعادة. كنت أشتغل كثيراً في المزرعة، واستمتع في المساء، بتأليف القصص عنّا.

تعرفين أنني أحب كتابة الحكايات. ولكن ما لا تعرفينه يا فريدا أنك حين كنت تذهبين إلى المدينة في الشتاء، لمتابعة المدرسة، كنت أنا، أعيد كتابة الحكايات التي كنا نخترعها معاً. كنت أكتب حكاياتنا.

نعم أنا أحلم، أحلم أن أنشر هذه القصص. كنا جنيّتين شقّتا الأرض وخرجتا من عمقها، لتعيشا بين البشر. كنا نضاجع رجالاً وسيمين في مخيلتنا وننجب الأطفال، تذكرين أنني أنجبت بنتاً ساحرة، سمّيتها أليس، بعد أن كنت أحضرت لي كتاب أليس في بلاد العجائب، وأحببت أن أكون تلك الأليس. أما أنت فقد أنجبت صبياً سميتِه سندباد.. تذكرين أننا ألّفنا حكاية الحب بين ابنتي وابنك؟.

أنا أكتب هذا الآن، لو تتخيلين حجم الأوراق لدي!.. أخبئها جميعها في مخبأنا السري، الذي لا يعرفه أحد غيرنا، فيما لو خطر لك العودة ذات مرة، لتقرأيها. أحيانًا أخاف أن أموت، وتبقى هذه القصص مدفونة تحت الشجرة. ثم أطمئن نفسي، بأنك ستعودين ذات يوم، وتفتحين هذا الغطاء السري، وتجدين تحت الفتحة، هذه الأكياس التي تصنع كتباً وتلالاً من الروايات.

أنا أكتب بنهم، في كل ليلة، منذ خمس سنوات، منذ رحيلك عني. منذ آخر لقاء بيننا.

أكتب، ما رويناه، وآخذ دورك في روايات أخرى، لم نؤلفها معاً، أتابع العيش في مخيلتي، كأنك لا تزالين هنا.

أنا فتاة سعيدة يا فريدا، لا ينقصني شيء في الحياة. أعيش عشرات بل مئات الحيوات. كل ليلة، لي حياة.. كأنني أبْني العالم. عالم أخترعته وفق رغباتي.

أنا سعيدة يا فريدا. منحتني الحياة أكثر مما قد تنتظره فتاة، في هذا المكان الذي لم يسمع به أحد، ولا يراه أحد على الخارطة. هذه القرية الصغيرة، الهادئة، التي يعيش سكانها على بيع الحليب والجبنة، ولا يعرف معظمهم درب المدينة، ولماذا المدينة. نحن لا نشتري خضارها وثمارها، بل نأكل من الأرض، تذكرين كيف نقتلع حبات البندورة من الأرض ونلتهمها. هكذا حياتنا كلها، حبة البندورة الطازجة، إنها لا تحتاج إلى غسل بالماء حتى.

منحتني الحياة أكثر مما منحت بنات القرية. منحتني أنت.

وأنت بوابتي إلى الفرح. إلى المعرفة. إلى الحياة.

كنت صغيرة حين جئت إلى القرية. كانت كل منا في السادسة من عمرها تقريباً. منذ اللقاء الأول بيننا، حيث اشترى والدك المزرعة والبيت، وجئتم لزيارتها الأولى، وحيث اختار أبي من بين كل الذين جاؤوا يريدون العمل، ثم جاء أبي بأمي، وصحباني معهما، فالتقينا. منذ ذلك اليوم، ونحن نلتقي في كل عطلة صيف، ولا ننفصل، حتى يبدأ العام الدراسي الجديد وتذهبين إلى المدينة.

لقد منحتني حياتك يا فريدا. كنت كتوأمك. لم تحرميني من أي شيء.

كنت تأتين بكتبك المدرسية، وتعلمينني القراءة والحساب والجغرافيا والتاريخ. أقاسمك ما تعيشين، ما تقرأين، ما تأكلين، من دون أن أظهر في الصورة، حتى لا تغضب أمك. وكانت مربيتك

السوداء، التي قضيت معها، مثلك، معظم أوقاتنا في الصيف، فنراها أكثر من أمك، أمك التي لم تعلم بوجودي يوماً، وربما لا تعرف أنني موجودة أصلاً، كانت مربيتك، الكائن الوحيد الذي يعرف بصداقتنا.

ألعابك، كتبك، مجلاتك، ملابسك. كل شيء، كنت تأتيني به. وكنا نُمضي أوقاتنا معاً، ونثرثر معاً، ونكبر معاً، من صيف لآخر.

كانت الحياة جميلة وسحرية. كنا نخترعها ونصنعها، إلى أن جاء ذلك اليوم البغيض، حين أصرّ والدك على إرسالك إلى أميركا لتتابعي دراستك هناك بعد حصولك على الثانوية، وقد أتممت سن الثامنة عشرة، مثلي. لم يقبل والدك أن تبقي في المدينة، وتدرسي في أي جامعة هنا، بل يجب أن تحققي حلمه، الذي فشل في إنجازه: أن تدرسي في كلية الفنون الجميلة، وتصبحي تلك الرسامة التي تلفت أنظار العالم إلى لوحاتها. حيث فشل ويليام في الرسم، وفشل والدك، الذي يحلم بالرسم، ولم يتمكن من تحقيق حلمه.

لن تذهبي إلى أميركا، ولن تقيمي مع ويليام، كنا نسميه ويليام، وليس هذا اسمه، إذ كان لكل ممن نعرفهم، اسمه الخاص بيننا، غير اسمه الحقيقي. هكذا قلتِ لي.

قلتِ إنك ستتظاهرين بالموت، حتى لا يرسلونك إلى الغربة، كنت تكرهين أميركا، والبلاد الكبيرة. تخافين من الحضارة الخانقة، الكتب الإلكترونية، أجهزة الكمبيوتر، البطاقات المصرفية، المترو، المباني العالية، المصاعد، الأدراج المتحركة. قلت إنك ستجعلينهم يعتقدون بأنك متّ، فيتركونك هنا، في بيت الضيعة، حيث تحبين رائحة البقر والعشب وخبز التنور الساخن واحتراق الحطب، واللعب مع ديب الذي كان عمره سنتين فقط، حين قررتِ أن تموتي، أقصد، أن تتظاهري بالموت.

"فقط أنتِ تعرفين الحقيقة. سأعود إليك سراً، ونتابع قصصنا وحكاياتنا، ونسهر حتى الصباح، في الصيف والشتاء، وأتحرر من أهلي"، قلت لي وأنت تعلّقين الحبل في عنقك، وتربطين طرفه الآخر في غصن شجرة التوت، ثم تركلين الكرسي الخشبي الصغير، فأرى جسدك متدلياً أمامي، وأصرخ باكية: توقفي يا فريدا. لا أحتمل هذا المزاح!

***

ثمة ضوء يتسرب من غرفة لم أنتبه إليها من قبل، جوار المطبخ. الباب الموارب يتسرّب منه الضوء إلى المطبخ، ورائحة ليمون. دفعت الباب برفق، فكاد قلبي يسقط من الدهشة.

ماذا ينتظرني هنا!

كما لو أنها جنّية خرجت من كتاب، وجلست على تلك الأريكة، تضع رأسها في كتاب، والضوء الصغير يغمر رأسها والكتاب فقط. حين أحسّت بوجودي، رفعت صوبي وجهاً مذهلاً يشع بالضوء، كأنها ملاك، لا ليست جنية!

"من أنت"؟ سألت بصوت مرتجف ضعيف. نهضت وأضاءت نور الغرفة، فرأيتها كلها، بكاملها.

كأنها خرجت من أحد أفلام السينما الفرنسية إبان الحرب، سينما الريف تحديداً، ثوبها الطويل، ذو الأكمام الواسعة الفضفاضة.

لم تجبني، بل سقط الكتاب الذي كانت تقرأ فيه، بسبب ارتباكها، وهي تحاول الاقتراب مني:

- أية خدمة أقدمها لك؟ جائع؟ أحضر لك شيئاً تأكله؟

اقتربت لألتقط الكتاب، فاندهشت أكثر (ماذا ينتظرني هنا بحق السماء)، كانت تقرأ روايتي.

ابتسمت مرتبكة:

- هذا كتابك. كدت أنهيه الليلة، قلت لنفسي إنني لن أنام قبل إنهائه.

جلست جوارها شبه مخدّر، كأنني أحلم:

- من أنتِ؟

- ديبة.

- نعم؟

- نعم، هكذا هو اسمي، ديبة، أي ذئبة.

كان يمكنني أن أشعر بالخوف، إذ لا أعرف من أين انبثقت هذه الصبية، إلا أنني على العكس، شعرت بطمأنينة مهدّئة.

صوتها دافئ، وجهها طفولي، عيناها صغيرتان تلتمعان بذكاء، شعرها أسود طويل، أجعد قليلاً يسترخي على كتفيها كشال. باختصار، جميلة، جميلة جداً، ومريحة، وقريبة من القلب.

يا له من اسم، ديبة!

كانت تشرب ليموناً مغلياً بقشره، وقد أذابت فيه بعض السكر، في إبريق معدني، ولا يزال ساخناً، إذ عرضت عليّ كأساً فقبلت.

جلست بجوارها على الأريكة، السجادة من الصوف الملون، بالألوان التي أحب. لا أعرف ما الذي دعاني لفتح حديث عادي معها، أخفي عبره دهشتي وارتباكي:

- وما رأيك في الرواية؟

- بصراحة؟

- طبعاً.

وقد استغربت سؤالها، فكأنها لم تحب الرواية، التي نالت استحساناً عالمياً، لدى النخبة والعاديين.

أخذتْ رشفة من ليمونها، كانت شفتاها متوردتين، ووجها أبيض مضاء بنور داخلي، يلمع على بشرتها. وضعت الكأس وقالت:

- طيلة الوقت، وأنا أقرأ الرواية، كنت أشعر بروح امرأة. إما أنك لست كاتب هذه القصة، أو أنك خارق إلى درجة خداع الآخر.

ارتبكتُ، هذه أول مرة اسمع فيها هذا الرأي، (أي قدر جاء بي إلى هذا المكان، ماذا ينتظرني هنا!)، رحت أتساءل بقلق.

تابعت الصغيرة، نعم، صبية صغيرة لا تتجاوز العشرين من عمرها.

- ليس سهلاً أن تُقنع القارئ بعوالم جنس ليس جنسك.

دققت في ملامحي قليلاً ثم تساءلت بخجل: «أنت رجل أليس كذلك؟».

انفجرت بالضحك. كان سؤالها مفاجئاً جداً.

- أعتذر، لكنني فعلاً شعرت دوماً بأن امرأة كتبت الرواية.

- مع أنها مكتوبة بصيغة الغائب، فلا نعرف جنس الراوي.

- نعم، لكنها الروح فرانكو.

- فرانكو؟

لن تتوقف هذه الجنية عن إدهاشي.

- آسفة، أنت تشبه الحكاية، وفي الحكاية كان اسمك فرانكو، هل أستطيع أن أناديك بهذا الاسم؟ هي مرة واحدة، ولا أظنها ستتكرر.

- ما هي المرة الواحدة التي لن تتكرر؟

سألتها وأنا أرتشف من كأس الليمون.

- لقاؤنا هذا، سيكون لمرة واحدة.

- لماذا؟ هل تقول الحكاية إنك ستختفين؟

- أتسخر مني؟

- لا أبداً، آسف، فقط أحاول أن أفهم.

- كلا لن أختفي، ولكنني لن أظهر أيضاً، فليس لوجودي هنا ضرورة، وما من فرصة لنلتقي، لأنني أخرج في النهار، وأعود لأمضي ليلتي هنا، أعود في الليل فقط.

- وفي النهار، أين تذهبين؟

- إلى المزرعة.

- أية مزرعة؟

- أنا أشتغل في المزرعة. صحيح أنه ليس موسم الزراعة ولا الحصاد، لكنني اهتم بالحيوانات، البقر والأغنام والغنمات والدجاج. لست وحدي، معي بنات حور العين.

أحسست بدوار خفيف، كأنني أعيش في سينما عبثية، فيلم لبيكيت مثلاً.

- من أنت؟

- أجبتك. أنا ديبة.

- وماذا تفعلين هنا؟

- - أنام هنا. أنام في الليل، وأذهب إلى المزرعة في النهار، هكذا حياتي.. و..

- وماذا؟ تابعي.

- لا.. لا شيء.

- بلى، كدت تقولين شيئًا ثم تراجعت، تابعي.

- ألن تسخر مني؟

- لا، لن اسخر أعدك.

- في الليل، وقبل النوم، أقرأ. أقرأ كثيراً، ثم أنام.

- تمام.. هذا ما أريد أن أفهمه. كيف لفتاة مثلك، تعيش في قرية معزولة، ليس فيها مدرسة، وتشتغل في مزرعة وتعتني بالحيوانات، أن تجيد القراءة، وتقرأ. تقرأ كثيرًا..

- وهل تعتقد أن الذين يعيشون في القرى النائية، ويعملون في الأرض ومع الحيوانات، كائنات حمقاء؟

- لا أبداً، آسف لم أقصد، لكن القراءة شغف خاص بالمتعلمين.

- أنت مخطئ. أنا متأكدة الآن بأنك لست مؤلف الرواية. أنت لص.

نهضت الصبية وطلبت مني أن أنصرف لأنها تريد أن تنام، ثم أضافت:

- يمكنك فقط أن تتصرّف بشهامة، حتى لو لم تكن مؤلف الرواية، وقد سرقتها من امرأة، وربما قتلتها لا أعرف، أو دفعت ثمن الكتاب، مستغلاً ظرف المسكينة، لا يهمني هذا الآن، فقط أتمنى منك أن تتصرّف بفروسية، ولا تُعلم أحداً بأنك رأيتني، ولا تحاول طردي.

تحدثت إلي بلغة مستعلية، كأنها وُلدت ملكة، لا بنتًا ريفية فلاحة.

خرجت أجرّ أذيال خجلي. يبدو أنني كنت سطحياً في تفكيري ولم أقدّرها.

قبل أن تُغلق الباب خلفي، وضعت يدي معيقاً إغلاقه:

- سأتصرّف بشهامة كما تطلبين، ولن أخبر أحداً بوجودك هنا، ولن أزعجك، فقط أرجوك، أخبريني كيف توصّلت إلى الإحساس بأنني لست صاحب الرواية. أرجوك، هذا يهمني جداً، إنه يتعلق بمستقبلي ومهنتي.

- سر الريف.

- ماذا.

- هنا كل شيء طازج. نحن لا نأكل الخضار المصنّعة ولا تلك التي يزرعونها في بيوت بلاستيكية، ولا اللحوم التي تتدخّل فيها الآلات والمواد الإضافية، كل شيء هنا طبيعي وحقيقي. هنا، النسخة الأصلية من العيش، لا مكان للتزييف، أنت ترى، تشرب الحليب من ضرع البقرة، إلى النار، إليك. هنا لا معامل، ولا ماكينات، والبشر هنا هكذا، بنظرتهم الداخلية لما حولهم، يحسّون بالأشياء. لا أستطيع أن أثبت أن كاتبة الرواية امرأة، لكنني أحسّ بهذا.

- وتقولين أيضا إنني قد أكون من المهارة، لتقمّص روح المرأة.

- أضع هذا احتمالاً لبراءتك فنياً، لأنك تشبه فرانكو.

- نعم، فرانكو في الحكاية التي لا أعرفها. فهمت. أنت جنية، أنا متأكد.

غادرتها منزعجاً، ولكنني سعيد في الوقت نفسه، كيف أشرح هذا! الضيق الممتع؟ الحزن السعيد؟ يا إلهي، ماذا ينتظرني في هذا المكان.

***

هل تذكرين ذلك الشاب الوسيم الذي اختلفنا عليه؟ سميناه فرانكو، فهو يشبه فرانكو كاسباري، بطل القصص المصورة التي كنا نسرقها من صندوق والدك المخبأ في المخزن، مع لوحاته، والملابس القديمة، التي ترفض أمك رميها، لأنها من «ريحة العيلة» ولها فيها ذكريات.

كنا نسخر من لوحات والدك. أف، هذا ليس مهماً الآن. أريد أن أحدّثك عن هذا الشاب.. نعم، يشبه الشاب الوسيم في مجلة الأزياء، نعم، أعرف، أحلى من فرانكو كاسباري، أسمر وجذاب وفي عينيه لمعة ذكاء مختلطة بخبث، ومثير. نعم، كنا نضحك ونحن نعترف لبعضنا، أنه حلم كل منا.

إنه روائي يا فريدا. تخيلي. إنه يكتب الرواية. يعني مثلنا. لكننا لم نفكر يوماً بنشر ما نخترعه من حكايات.

أصلاً لولا غيابك، ما فكّرت في كتابة هذا كله. أنا أكتب لك، لكنني لم أفكر أن أنشر هذا الكلام. ولكن لم لا يا فريدا؟ إذا كنا نحلم ونؤلّف القصص، فلماذا لا ننقل هذه الأحلام لغيرنا، ربما ثمة بنات مثلنا، يحتجن إلى أحلامنا، حتى يتعلمن أن تكون لهنّ أحلامهن الخاصة؟

لقد أغضبته يا فريدا، تعمدت هذا منذ اللقاء الأول. قلت له بأنه ليس كاتب الرواية. كنت أحاول أن أترك أثراً عنده، فأعيش أجزاء تالية من الحكاية.

جاء فرانكو لعدة أيام يا فريدا. نعم أنا لست وحيدة، أنا محاطة بالبشر الذين صنعناهم معاً. في كل ليلة، كنا نخترع الحوادث التي تجعلنا يقظتين حتى الصباح، لنعرف نهاية الحكاية. كم خطفنا من أولاد، في مخيلتنا، وكم أنجبنا من أولاد، وكم بدّلنا أهلنا، وبلادنا، ومهننا، وأسماءنا، بل وكان لكل من أهل القرية اسمه الآخر، غير اسمه الحقيقي، ندعوه به بيننا. لست وحيدة، ومعي ديب الذي أحضرته وتركته هنا. ديب من رائحتك، وهو معي. لا أشعر بالوحدة، ولكن ظهور هذا الروائي فجأة في بيتكم، الذي أعيش فيه منذ رحيلكم، وكأنه بيتي، أجّج أحلامي يا فريدا. أريده أن يبقى. لا أعرف ماذا أسمي هذا. أحتاج رائحته في المكان، أحتاج أن أغيّر من بعض الحكايات. أنا حزينة يا فريدا. حزينة بشكل لذيذ، لا أعرف كيف أصف لك هذا. إنه أول شعور أحياه هكذا، شعور لم نتحدّث عنه، لم نتخيّله، لم نخترعه، أسميه الكآبة اللذيذة. لا أريد أن يرحل فرانكو. هل أحدّثه عن رواياتي؟ أعني رواياتنا؟ هل أكشف له أسرارنا، فيبقى، أم أن امتلاكه للسر، سيصرفه بسرعة. كيف أبقيه هنا يا فريدا؟

***

لويز. نعم، سأدعوها لويز. سأراها مرة أخرى، لا بد من هذا. اسم دِيبة يخيفني، يُشعرني بأنها ذئبة أفلتت من أدغال بعيدة وجاءت خصيصاً من أجلي، لتخويفي. نعم، أخاف منها. فيها سر ما، لا يمكنني تركها هكذا، يجب أن أعرفها أكثر. فتاة جميلة، بل ذات جمال أخّاذ، ذكية، قارئة، موهوبة. يا إلهي، كيف تعيش صبية بجمالها وذكائها ونباهتها في هذا المكان المعزول الذي لا يعرفه أحد!

سأنزل إليها هذه الليلة، ولكن في وقت متأخر، حين تكون قد أنهت القراءة ونامت. هي تنام في ساعة متأخرة عند الفجر. سأنزل إليها وأتأملها وهي نائمة. أكتشف سرّها وهي غائبة عن العالم، ولا تراني، ولا تعي ما حولها. سأراقبها وهي نائمة، لأعرفها. أهي جنيّة أم بشر!

إنها الثانية ليلاً. يخطر لي أن أتسلل بهدوء صوب المطبخ، لن أدخل، فقط سأراقب ما إن كان النور مضاءً، ما لو كانت هنا الليلة. لن أنتظر حتى الخامسة، إن لم تكن هنا.

أخرج من غرفتي، أرتبك، أعود. أجلس قليلاً في الغرفة، أشعل سيجارة، أقرّر أن أتشجّع وأخرج. قبل أن أنزل الدرج، أعود أدراجي نحو الغرفة. ما هذا الارتباك! أحتاج إلى كأس، قد يخفف عني هذا التوتر، ولكن، اللعنة، لم أجلب معي أي مشروب، هكذا نصحني يعقوب، أن أتحرر من عالمي وأعيش كما يتطلب العيش في الريف. قال المشروب سيفسد علاج الريف لروحي.

إنها الثانية والنصف، أنزل. أجلس على الدرج الواصل بين غرفتي في الطابق العلوي، والصالة الواسعة في الطابق الأرضي، حيث ثمة ممر، يُفضي إلى المطبخ. يضاء النور في الممر فجأة. ألمح طيفها. خرجت من المطبخ صوب المرحاض في الطرف المقابل من الممر. أعتقد أنها هي. رائحة الليمون المغلي منتشرة في الجو. نسائم الهواء من النافذة المفتوحة في الصالة، حرّكت رائحة الليمون، وأتت بها، من غرفة لويز، إلى أنفي. أجل، أنا أدعوها لويز.

تأكدت الآن أنها هنا. سأعود إلى الغرفة، وأنزل مجدداً بعد ساعتين أو أكثر. لأنظر إليها وهي نائمة.

ساعتان، هي مدة الفيلم، هذا جيد، يساعدني على تمرير الوقت.

حسناً، إنها الخامسة صباحاً، لا بد أنها نامت الآن.

أنزل متشجّعاً أكثر من قبل. بخطوات واثقة. أتجه نحو المطبخ.. باب الغرفة الصغيرة موارب. أدفعه بلطف، وأدخل. يا إلهي! كل هذا ينتظرني هنا!

***

أنا حامل يا فريدا.

كنت سعيدة قبل أن أعرف فرانكو. ولم ينقصني أي شيء، ولا أنتِ، فأنت معي، تقيمين في رأسي، وأتحدث إليك طيلة الوقت، في النهار حين أعمل، وفي الليل، حين أكتب لك.

امتلأت صناديق والدك بأوراقي المكتوبة. أنا أجمعها الآن في المخزن، أفرغت بعض صناديق الكتب والمجلات المصورة، ووضعت فيها أوراقي، هكذا لن أخاف عليها من التلف، ولن يرميها أحد إن متّ، سيظنون أنها لوليام أو ليعقوب، ولن يفرطوا بها.

إن الأوراق التي ملأتها منذ خمس سنوات، تكفي عشرات الكتب. كنت سعيدة بكتابتها، إلا أنني توقفت عن الكتابة يا فريدا. اكتشفت سعادة أخرى لم نعرفها، أدركت مع فرانكو، أنها تنقصني، الجسد يا فريدا، لم نكتشف يوماً لذة الجسد.

هذا ما منحني إياه فرانكو. تعرفت إلى جسدي، وإلى جسد الرجل. بكيت من المتعة، يا إلهي، كم يحزنني أنكِ لم تعرفي هذا يوماً ولم تعيشيه.

لقد توقفت عن الكتابة. أنتظر طفلي.

سأنجب سندباد، ابنك في الحكاية. وسأحكي له حكاياتنا. له فقط سأروي ما عشناه معاً. حيواتنا الكثيرة التي لا يعرف أحد عنها. سأفضح له سرّ الحياة المزيفة التي يحياها العالم، ولنضحك على العالم، حيث نحمل أسماء وهويات سطحية نظهر بها أمامهم، ونحن في الحقيقة، كائنات أخرى. سأعلّم سندباد الحكايات. سأورثه حكاياتي الكثيرة. وأعلّمه كيف يتخيّل حكايات جديدة، وسيرث من والده الحرفة. فرانكو يتقن صناعة الحكاية. سيكون سندباد خرافة أخرى بعدك يا فريدا.

***

الجسد الطازج، هو جسد لويز. امرأة تخرج من الأرض للتو. لا تعرف الشهوة ولم تكتشف الرغبة من قبل. امرأة طازجة، عذراء كعذرية هذه المزارع التي لم تطأها أقدام أهل المدن، لم تمسّها أيدي المهندسين والماكينات. كل شيء في لويز طازج.

سميتها لويز، تشبه كثيراً بطلات السينما الفرنسية في أفلام الريف في الأربعينات والخمسينات. ملابسها الفضفاضة الواسعة، بشرتها الناصعة، شعرها الطويل، وأهم ما سحرني فيها، فوق ذكائها وجمالها، رائحتها.

لجسد لويز رائحة المزرعة. رائحة زهر الليمون. رائحة التراب بعد سقوط المطر. رائحة منعشة، تقتل السأم، وتولّد الحياة.

حين كانت تستلقي غافية، كانت تبتسم كالأطفال، وهي تحلم. وسمعتها تتمتم ببعض الكلمات «رواية فرانكو ليست سيئة، ولكنها يمكن أن تكون أفضل». ارتجفت وأنا أتأملها. تعلو خداها حمرة الأحلام، حتى في أحلامها، تقول جملاً ذكية ومبدعة. تبتسم كالأطفال، حيث يُقال إنهم يبتسمون للملائكة. هذه ليست جنية، هذه ملاك.

جلست على الأرض، بجوارها تماماً، وكانت هي تستلقي على

جنبها، ولم تتحرك لساعات، لا أسمع أنفاسها، بل أرى صدرها يعلو ويهبط برفق، كأنها نائمة وصاحية في آن. بدت وديعة ولطيفة كملاك، ولم يفارق ذلك الضوء المشعّ وجهها وجبهتها. رغم الظلام، كان وجهها يضيء، وكنت أرى ابتسامتها، وتمنيت لو أن معي قلماً، لأدوِّن العبارات التي تقولها. كلمات مبتورة، جمل طويلة «أنا أنزلق، الماء بارد جداً، توقفي عن هذا المزاح، إنه وسيم وسيم جدا وفوق هذا.. روائي».

كانت تفكر بي كما أفكر بها. انتابتني رغبة في لمس وجهها، في تقبيلها على جبينها، أحسست بحنان غامض تجاهها. هذه الصبية السر. كأنني قطعت كل هذه المسافات، وجلت العالم، حتى أجدها هنا. أرغب في لمس وجهها، أخاف أن أوقظها فأخيفها. يقترب ضوء النهار. لا أريد أن أسبب لها الذعر، أو أضايقها. ما أبشع أن يكتشف أحدنا، أن أحدا يراقب نومه. أرسلت لها قبلة في الهواء وتمنيت لها نوماً عميقاً، وغادرت.

***

اعترف لي بأنه دخل عليّ وأنا نائمة، وأنه جلس ساعات على ركبتيه يتأملني، وأنه بطريقة ما، لا يفهمها، ولا يستطيع تفسيرها، يحبني.

ارتميت عليه، وبكيت، أحسست بك. كنت أحلم أنني أنزل في عين الماء، وكان الماء بارداً. أحسست بتيار من النسيم المنعش، وكأنك دخلت عليّ، لكنني كنت بين النوم واليقظة، ولم أتمكن من فتح عينيّ لأتأكد أنه جسدك الذي كان كالنسيم، أم أنني أحلم.

- 3 -

حور العين

قسمت الرواية إلى فصلين: داري العيون- حولة الحُسن.

تتحدث الرواية عن البنات اللواتي يولدن في حور العين، حيث تأخذ الأمهات، المولودات البنات فقط، لغسلهن هناك، من أملاح الرحم، في ماء النبع.

تقول الحكاية، إن فريدا وُلدت في ذات اليوم الذي وُلدت فيه داليدا، ولكنها لم تولد في حور العين، وربما لن تأخذ من مزايا النبع السحري، تلك التي تحصل عليها المولودات داخل الضيعة.

وُلدت داليدا، في الثلاثين من الشهر الفاصل بين فصلي الجمال والإبداع، بين شهري فتنة العيون وسحر السرد. ولو أن فريدا، وُلدت في حور العين، لاكتسبت المزايا الاستثنائية نفسها التي لبنات الحور، تلك التي تُمنح مرة كل عشر سنوات، للطفلة المولودة في اليوم الثلاثين من الشهر التاسع، إلا أن فريدا لو تولد في المكان نفسه، ولا غسلتها أمها في ماء النبع، كسائر الوليدات في حور العين، كما فعلت أم داليدا.

تنقسم الفصول الأربعة في حور العين، إلى تقسيمات خاصة بولادة البنات. فلكل بنت تولد في فصل ما، مزايا تحصل عليها، وفقاً لفصل

ميلادها. وتأتي الفصول الأربعة وفق التسلسل التالي: فصل الانكفاء، وهو من الشهر الأول وحتى الثالث، وينقسم بدوره إلى ثلاث دورات مزاجية. فالبنات المولودات في الشهر الأول من الفصل، يملن إلى العزلة والكآبة، بينما البنات المولودات في الشهر الثاني، يكنّ ميّالات لفكرة الموت، وينتحرن لسبب ما. وبنات الشهر الثالث، يملكن شخصيات مطيعة، تابعة، مسحوقة، ولا يكنّ متفرّدات أو ذوات شخصية مستقلة.

أما الفصل الثاني، فهو فصل القوة، وينقسم كذلك إلى ثلاثة أقسام، فمولودات الشهر الرابع، يملن إلى الفروسية والخيل، والألعاب التي تحتاج إلى مهارة جسدية. ومولودات الشهر الخامس يتفوّقن في الأعمال اليدوية والأعمال المنزلية، والزراعة ويصلحن للأعمال التي تحتاج طاقات جسدية. أما مولودات الشهر السادس، فتكون قوتهن في عقولهن، إذ تتسم مولودات هذا الشهر بالحكمة وقوة العقل والرجاحة، وتصلح البنات المولودات في هذه الفترة، لقيادة أعمال ومشاريع تحتاج إلى قوة ذهنية وعقلية كالقضاء والتحكيم والفض في المنازعات.

الفصل الثالث في تقسيم مولودات حور العين، هو فصل الجمال، إذ تولد بنات الشهر السابع بأجساد وقامات مميزة. مولودة الشهر السابع تصبح صبية ممشوقة القوام، طويلة ونحيلة ولا عيب في تكوينها الجسدي. أما مولودة الشهر الثامن فسحرها هو وجهها. ثمة جاذبية خاصة في ملامحها، تأسر قلب الناظر إليها. إنه شهر فتنة الوجه. أما من تولد في الشهر التاسع، فسرّها في عينيها، ولهذا سميت القرية بحور العين، لأن كل فتياتها جميلات العيون، ولكن مولودات هذا الشهر، يملكن عيوناً لا تعرفها البشرية، بألوانها المتدرجة، ولمعانها، وضوئها الخاص، ورسائلها. فالعيون تحكي أكثر من الشفاه، ويسمى هذا الفصل

بالعامية الدارجة بين نساء القرية ورجالها بفصل «داري العيون».

الفصل الأخير، هو فصل الإبداع والمخيلة، ومولودات هذا الفصل كلهن على الإطلاق مبدعات، حيث تولد بنات الشهر العاشر مغرمات بالسرد، يخلقن وفي أفواههن معرفة الروي وفنه. وبنات الشهر الحادي عشر، يبرعن في كل ما له علاقة بالتشكيل، النحت والرسم وتصميم الأزياء وهندسة البيوت وتزيينها والفرش والخياطة والطبخ المبتكر. أما مولودات الشهر الأخير فهن العارفات. جميعهن يعرفن ما سيحصل، عرّافات ومتنبئات وقارئات للمستقبل.

الساردات الجميلات إذاً، هن المولودات في منتصف الليل، وبداية اليوم الجديد، في الساعة الثانية عشرة ليلاً. يولدن مالكات مهارة السرد، وفاتنات، ولكن على الأمهات غسلهن مرتين. حتى يتحررن من سوء الطالع الذي قد يلحق بالمولودات، نظراً لحصولهن على مزايا الفصلين.

تتابع الحكاية، الواردة في كتاب «حور العين»، أن والدة داليدا نسيت غسل ابنتها مرتين، لأنها لم تنتبه إلى ولادتها في الساعة الثانية عشرة من نهاية الشهر التاسع، ولأنها أصلا لا تؤمن بطاقات النبع السحرية، بل ذهبت لغسل ابنتها، لأنه طقس القرية، حيث تذهب النساء برفقة النفساء، منتظراتها حتى ترتاح قليلاً من أوجاع الولادة، ثم يأخذن الطفلة، بمشيمتها، يقطعن الحبل السري قرب العين، ويدفنّه هناك، ويعمِّدن البنات بماء العين.

لم تفعل أم داليدا هذا، وكلما سألت داليدا أمها: «هل غسلتني مرتين؟»، سخرت أمها منها.

كان يمكن لفريدا إذاً أن تحصل على موهبة السرد وفتنة الجمال والجاذبية، لو أنها وُلدت في حور العين واستحمت في مائه.

إلا أن هذا لم يحرمها من مزايا النبع.

حين وصلت إلى القرية، كانت في السادسة في عمرها، وذهبت في جولة في الضيعة، برفقة داليدا، ومربيتها السوداء.

كما لو أن صوتاً داخلياً قاد داليدا، لتركض لاعبة مع فريدا، متجهتين صوب العين، وكانت جوليا السوداء تلحق بفريدا.

حين سقطت فريدا وهي تلعب قرب العين، داخل الماء، شعرت جوليا بالذعر، لكن فريدا أحسّت بفرح غامر. ربما لم تسقط. ربما داليدا دفعتها برفق، لتستحم في ماء العين.

كان ذلك في عيد ميلادها السادس، وكان عيد ميلادهما معاً.

خرجت فريدا من الماء مبلّلة ومنتشية وضاحكة، وراحت تركض متدحرجة على التراب، حيث ترقد تحت قدميها، مئات المشيمات المدفونة، لبنات ولدن وغُسّلن هنا. كانت فريدا تشم رائحة التربة المختلطة بدماء الولادة، والحبال السرية، وكانت تتمرّغ على الأرض سعيدة، موحِلة ملابسها، وجسدها. كأنها تزرع نفسها في الأرض، وتعوّض خسرانها.

تقول الرواية إذاً، رواية حور العين التي كان فرانكو منغمساً في قراءتها، تاركاً زوجته الحامل في شهرها الثالث، جالسة قرب موقد الحطب، تحوك معطفاً من الصوف لابنها القادم، وهي تعرف أنه سيكون صبياً. تقول الرواية، إن داليدا تحررت من سوء الحظ، حين تقاسمت مع فريدا، قدر الولادة، والاغتسال المتأخر في العين، فكأنهما توأمتان، ولدت كل منهما في جهة، ثم استعادا بعضهما، في السنة السادسة من فراقهما. ما لاحظه الجميع، أن فريدا، بعد اغتسالها في ماء العين، وتربة المشيمات، امتلكت سحراً خاصاً في عينها اليسرى، حولاً جمالياً، يدعونه حولة الحُسن.

تجري حوادث الرواية في مئتي صفحة تقريباً من الحجم الوسط. رواية خصبة، مليئة بالتشويق والإثارة والإدهاش. في كل سطر فيها،

ثمة جملة غريبة، عالم مصنوع من مفردات غرائبية، تصدّق أنه موجود، ولا تصدّق أيضاً.

المدهش أكثر بالنسبة لفرانكو، ليس فقط براعة السرد، وقوة المخيلة، وخصوبة الأحداث، وقدرتها على «كركبة» القارئ والإمساك بتلابيبه، منذ الصفحة الأولى، وكأنه أمام كتاب علمي يكشف أحد أسرار الحياة، أو يقدّم وصفات للخلود، كأنه كتاب سحري، ما إن يمسك به القارئ، حتى يقبض عليه الكتاب، وروح الروائية، وكأنها تخرج من الرواية، تأخذ القارئ، وتحوّله إلى روح، تتحرك بين السطور.

كان فرانكو مأخوذاً بالكتاب إلى درجة الذهول، أحبّه وكره صاحبته، أحسّ بالغيرة، وانتابته كآبة غامضة، لم يشعر بها من قبل، كآبة يسميها الفقد. كما لو أنه أضاع شيئاً ما منه، أو كأن أحداً سرق منه قسماً من حياته.

المدهش لفرانكو، هو اسم الرواية، والمكان الرئيسي الذي تنطلق منه الأحداث: حور العين، القرية التي لا يعرفها أحد، ولم يسمع بها أحد. أرسله إليها يعقوب، ناشره الأميركي من أصل لبناني، فقط ليستجمّ ويتخلّص من أزيز النحل في رأسه. فكيف تتحول هذه القرية التي لا يعرفها أحد، فجأة إلى عنوان رواية.

أحسّ فرانكو بأن ثمة من يتربّص به، وخطر في باله، لو أن أبدون مثلاً تتبَّعته وجاءت خلفه، مكتشفة «سحر المكان هنا»، فكتبت روايتها الثانية.

ثم خطر في باله، بأن ثمة روائيًا ما، يغار من شهرته، ونجاح روايته الأولى «الحياة المزيفة»، فتبعه، لمعرفة أسرار كتابته ونجاحه، فألهمه هذا المكان، هذه الرواية.

الرواية تحمل اسمًا مستعاراً، هذا ما كتبته الناشرة اللبنانية على الغلاف: فريدا الباشا، ليس اسم صاحبة الرواية، ولأسباب تجهلها دار

النشر حتى، فقد ارتأت الراوية نشر الرواية باسم مستعار، ووافقت دارنا على دخول هذه المغامرة، لأن الرواية باختصار، مدهشة.

كمية السحر والفانتازيا في هذه الرواية، سلبت عقل الناشرة وهي تقرأ المخطوط الذي وصلها ملفّاً مرفقاً إلى بريدها الإلكتروني، وجعلها توافق على نشر الكتاب، من دون التعاقد حتى، ولا حفظ حقوق للمؤلفة. وافقت على ذلك فقط، لأن الرواية تستحق النشر والقراءة.

بعد شهر واحد من نشر الرواية، وسرعة انتشارها بين القراء العرب أولاً، وربما القراء الغربيين، ستتحول حور العين، وعين الماء خاصة، إلى ما يشبه المزار، لكثرة الرواد، الذين جاؤوا لاكتشاف طقوس التعميد في ماء العين، وتلمّس التربة الرخوة الحمراء حول دائرة عين الماء، لاصقين أنوفهم على الأرض، محاولين شمّ روائح الحبال السرية المدفونة، والمشيمات.

هذا الحشد من الزوار، أعاد ضجيج النحل لرأس فرانكو، خاصة أن ثمة من ربط بين وجوده في القرية، والرواية، وهناك بعض الصحف التي كتبت بأن لفرانكو ربما علاقة ما بالرواية، من دون أن تتهمه مباشرة، بأنه صاحب الاسم المستعار.

شهقت رانيا، الناشرة اللبنانية، وهي تكتشف أن حور العين هي القرية التي يستجم فيها فرانكو أو ساباتو، وأن زوجته الحسناء، التي يصرّ على دعوتها بلويز، تلك الصبية التي تتحدث وكأنها تغنّي، بصوت موسيقي هادئ، ينوّم سامعه، فيجعله يحلم وهو يقظ. الصبيّة ذات العينين الساحرتين، والتي أجابت رانيا، التي أبدت إعجابها بجمال عينيها: أنا من حور العين، المعروفة بجمال عيون بناتها!

شهقت رانيا، وهي تربط بين الرواية، ووجود فرانكو ولويز في تلك الضيعة، وقالت في سرها، ربما فعلا فرانكو هو صاحب الاسم

المستعار، لكن ذلك لم يكن السبب الذي جعلها تقدم على مغامرة طباعة الرواية، في دارها العريقة، بل فعلاً، وكما كتبت على الغلاف، لأن الرواية مدهشة.

كانت رانيا، صاحبة الدار، والقارئة الوحيدة التي تقرر صلاحية المخطوطات التي تردها للنشر، ولم تكن تثق بذائقة أحد غيرها. حين وصلتها الرواية في إيميلها، من دون رسالة مسبقة تستفسر عن شروط النشر، وحقوق الكاتب، وما إن فتحت الملف المرفق، وقرأت أول سطور الرواية، حتى طبعتها مباشرة على الورق، ولم تتحرك من مكتبها، إلا بعد إنهاء الرواية المدهشة، كما تصفها.

كانت كآبة فرانكو متعددة الطبقات. كآبة الغيرة من أحد ما، كتب رواية، كان يجب أن تكون له، هو الذي أرسله يعقوب ربما، لأن المكان مُلهم، ولكن غباءه وسطحيته منعاه من اكتشاف روعة حور العين. هذه الكآبة، تشبه ما يمكن وصفه بكآبة السطو. أحد ما، سطا على فكرة، كان يمكن أن تكون له، فأخذها قبله. وكآبة الخجل والإحراج، حيث يستمتع ويخجل من نفسه لأنه استمتع، حين يسمع إشاعات تصله، بأنه صاحب الرواية الحقيقي. متعة النرجسية، ثم إحباط الحقيقة، وإحباطه من متعته، ولأنه ليس صاحب الرواية. وكآبة ثالثة هي كآبة اللاموهبة. كان يعتقد بأن الكتاب الذي نشره باسمه، وعلاقاته الأدبية، وانخراطه في عالم الأدباء والناشرين وجوّ الأدب، سيمنحه إمكانية كتابة رواية ثانية، هذا الكابوس الذي يتربّص به في أرجاء حياته، إذ كلما رآه أحد سأله: متى الرواية الثانية أستاذ. كان يعرف أنه لم يُخْلق للكتابة، لكن عناده أقنعه أن الموهبة يمكن أن تُحصّل لاحقاً، بالعمل والمثابرة.

أما لويز، التي تراقب ارتباكات فرانكو وتحولاته المزاجية، غضبه وانكفاءه على نفسه، ورغبته في العزلة، وصمته، ونومه وحيداً، مدعياً أنه يريد لها الراحة وهي حامل في شهرها الثالث فقط، فقد أدركت عمق

حزنه، وأحست بأنها عاجزة عن أن تغفر لنفسها هذا الحزن الذي تسببت به لحبيبها. واتخذت قرارها حين سمعته يقول على الهاتف لويليام، وقد شرب كأساً واحدةً فقط، فانهار باكياً: «لن أسامحك يا ويليام، أنت ابن هذه القرية. لا. لا. لا تقل لي إنك كنت تأتي في الإجازات فقط، وإن حوادث الرواية مُخترعة ولا علاقة لها بحور العين. اصمت ويليام، لا تبرر. لن أسامحك، حور العين مكان روائي بامتياز، كان عليك أن تثرثر لي قليلاً عن حكاياتها، كنت سأبحث. كل شيء أمامي يا حمار. ياسين وصبحية، كانا سيحدثانني عن أرض المشيمة، وعن التعميد. لويز؟ لا، لويز صبية صغيرة تُمضي وقتها بين الحيوانات، لا تعرف ما يحدث حولها في القرية. أنت مقصّر يا ويليام. ماذا؟ أي سر؟ قل، نعم، سأصدقك. ماذا؟ فريدا. ولكنها ليست هي، ماذا تقول. يا إلهي، هل ماتت؟».

كان فرانكو يرتجف من الغضب والقلق والحنق. وانتابته نوبة حمى عنيفة. في بيته الكبير، في وسط بيروت، كانت لويز الحامل، تمسح عرقه وتعدّ له الحساء الخاص الذي وصفه الطبيب، وكان يهذي طيلة الوقت: «فريدا أخت ويليام ولكنها ماتت. ماتت وعادت من الموت لتكتب. فريدا. داليدا».

حين أفاق فرانكو من نوبات الحمّى، واستعاد صحته قليلاً، ولم يستعد ابتسامته ولا استرخاءه، كانت لويز قد بدأت تشعر بركلات سندباد في أحشائها، ولكنها لم تغفر لنفسها هذا الألم الذي يحياه زوجها بسببها، فنفت القرار الذي اتخذته، وبلعت علبة حبوب المنوّم كاملة، بعد أن طرزت رسالة شارحة لفرانكو، وقررت اللحاق بفريدا.

رسالة لويز لفرانكو: فريدا هي أنا.

كان على فرانكو أن يموت من الألم والدهشة، وهو يقرأ رسالة لويز

واعترافها: فريدا الباشا هي أنا. لم أرغب بطباعة الرواية باسمي، كي لا أبني مجداً روائياً على مجدك. ولم أرغب أن أخبرك بالأمر قبل النشر، حتى لا تمتدحني من دون أن أستحق. كنت بحاجة للمرور إلى عالم النشر، من دون وسيط، من دون شهرتك وعلاقاتك. كان عليّ أن أتأكد أن الهراء الذي أكتبه، يسمّى رواية.

كنت ألهو، كما كنت أفعل مع فريدا. نعم فريدا، أخت ويليام التي شنقت نفسها على شجرة التوت، قريباً من عين الماء. كنا نلهو بالحكايات، وأنا الآن ألهو بالكتابة. طباعة الرواية كانت مجرد لعبة. خطرت في ذهني، حين التقينا برانيا في القاهرة، كنت حاملاً في شهري الأول، وكانت رانيا تلاحقك من أجل روايتك الجديدة، وغمزت لي متآمرة بمرح: سأفعل كل شيء حتى أحصل على روايته القادمة قبل غيري.

في تلك اللحظة، خطر في بالي أن أكتب. أعني أن أنشر شيئاً ما كتبته من قبل. أنت كنت مشغولاً عني في عوالمك. جهاز الحاسوب القديم المرمي في مكتبك المهجور في الغرفة المهملة، في حديقة بيتك، أو بيتنا، كما تريد أن أقول، في بيروت، جذبني. رحت أتعلّم الكتابة على الحاسوب، وأعجبتني الحالة.. أن ترى النصوص مدوَّنة على شاشة الكمبيوتر، حالة مفاجئة بالنسبة لي، رحت أدوِّن نصوصي، وحين أحسست أنها ربما أصبحت رواية. أنشأت عنواناً الكترونيا باسم فريدا الباشا، التي لم أصدق أنها ماتت، وأرسلت الرواية لرانيا.

لم أكن أعرف أن هذه اللعبة ستجعلك حزيناً، ولم أعرف أيضاً، أن ويليام سيخبرك بأن فريدا ماتت. لم أحتمل هذين الأمرين معاً، حزنك العميق الذي تسببتُ به، ويقين رحيل فريدا. لم يعد لي دافعاً مهماً للعيش.. أحبك. لويزك.

- 4 -

الحياة المؤجلة، الحياة المستعارة

قرأت كتابك يا ظبية. أتذكر الحكاية جيداً، كيف اخترعنا تفسيراً لحَوَل عيني اليسرى، بينما كانت بعض الصبايا يسخرن مني في المدرسة، وينادينني بالحولاء. صنعت أنت من هذا مبرراً للجمال، وكنت تعتبريني ست الحسن، وتلك حولة الحُسن.

ربما كان عليك أن تسمي الرواية حولة الحُسن، فأنت هي تلك الحَوْلة، لأنك حوّلت ما كان يراه العالم بشعاً، إلى جمال.

أنت أيضًا أجمل شيء في حياتي. إلا أنك لم تكوني وحدك في حياتي. تقول الأنباء إنك حاولت الانتحار. يجب ألا تموتي، فأنا هنا، أحيا، وعليكِ أن تعرفي نهاية الحكاية، أنت المُغرمة بالحكايات، أنت معلّمتي للقصّ والسرد.

سامحيني، لم أخبرك. كان ذلك سرّي الصغير، ولم أكن أنوي إخفاءه طويلاً، إلى أن أصرّ أبي على إرسالي إلى أميركا، فكان الموت عندي أفضل من مفارقته. ولم أرغب في أن تكون تلك، آخر قصة بيننا قبل الفراق. لم أرغب أن أموت وأنا أخبرك بأنني كتمت عنك جزءًا من حكاياتنا.

كان من المفترض أن أموت في ذلك النهار، حين علّقت عنقي في الحبل المشدود على شجرة التوت.

تذكرين ذلك النهار الذي أُصبتِ به بالبرد؟ كنت تسعلين بشدة، وكانت حرارتك مرتفعة. تأخرت عليّ في ذلك الصباح. كنتِ تأتين إليّ حالما تستيقظين. وكان أبي يعفيكِ من العمل في المزرعة، حين أكون هنا، لأنك تسليني. لم يكن هذا العذر يزعجك. كنا نسخر منهم جميعاً. حسناً، حين تأخّرتِ عليّ، ارتديت ملابسي وهربت من تحت أنظار جوليا، التي تلتصق بي كأنفاسي، ولا أتحرر منها، إلا معك، حيث تعلمينني أماكن الاختباء. كنت مريضة ووحدك في البيت. أمك خرجت مع والدك للعمل في المزرعة، وكانت البقرة الكبيرة على وشك الولادة. كنت أحضّر لامتحان الثانوية. وجئت إلى المزرعة بحجة حاجتي للهدوء، وكان هدفي طبعاً، أن نكون معًا، أنت وأنا. في ذلك اليوم، أصررتِ على أن أبحث لك عن زهرات الأقحوان والبابونج وشقائق النعمان، تلك التي تنبت على حواف العين، قلت لي إن دواءك هناك، وذهبت برفقة ديب.

هناك يا ظبيتي حدث كل شيء. وللمرة الأولى، لم تكوني معي، وكأنه كان ينتظرني وحدي، أو أنه صوتك الداخلي السحري، الذي أرسلني إليه، أو أرسله إليّ، هناك تحت شجرة الجوز.

«داري العيون»، أول جملة سمعتها منه، ملحّنة ومغناة. قال إنه لم ير يوماً صبية بجمال عينيّ، وأنني أجمل فتاة رآها في حياته، وداخ وهو يحدثني عن حولة الحسن في عيني اليسرى.

كنا ثلاثة يا ظبيتي، هو وأنا وديب. وكان ديب سعيداً بنا.

نسيت أزهار الاقحوان والبابونج والبنفسج. هل طلبت مني البنفسج أيضاً في ذلك اليوم؟

كان يحمل البزق، وكان وسيماً أكثر من كل الشباب الذين حلمنا بهم، وأنجبنا منهم الصبيان والبنات، وكنا نقص صورهم من مجلات أبي، ونضعها على مخداتنا، كأنهم أزواجنا.

كان حليم أجمل من كل أولئك الذكور. ابتسامته سحرتني يا ظبية، وصوته. يا إلهي، بحّة صوته كانت تذيب قلبي.

أولئك الرجال الجميلون كانوا خرسان. لم نسمع لأحدهم صوتاً. كان صوت حليم، ولهاثه وهو يلتصق بي، يحملني من كوكب الأرض، ويطير بي إلى أمكنة لم نتمكّن من تخيلها، أنت وأنا.

كنت أحب أنفاسه، رائحة فمه، رائحة صدره، لمس بشرته الرطبة، بشرته التي حين ألمسها أرتعش بلذّة لا يمكن تصوّرها مع أولئك الذين عرفناهم من دون أجساد. أحببته يا ظبية. وصار ينتظر ذهابك من بيتي، ليصعد إلى غرفتي، وكانت جوليا تسمح له وتساعده. سامحيني، كنت بحاجة إلى جوليا، تلك التي بدت متصلّبة معي وترفض كل طلباتي، صارت متسامحة مع حليم. لقد أحبّته جوليا، وبكت حين باغتتني معه ذات يوم. بكت وهي تراني في حضنه، وعاتبتني لأنني حرمتها من متعة معرفة أنني عاشقة.

حدّثتني جوليا عن حبيبها الذي تركته، وجاءت إلى بلادنا من أجل الرزق. كانت جوليا مؤمنة بالحب. تركتني أعيش عشقي مع حليم بل شجّعتني.

كنت أخجل منك يا ظبية، أخجل من إخبارك بقصتي مع حليم، حيث تقاسمنا كل شيء، وحيث أعيش للمرة الأولى أمراً خاصّاً بي، كنت أخجل من أن أسبب لك الألم، لأنني عاشقة، وأنت لا تعرفين هذا العشق، وكنت أخجل أيضاً لأنني أخفي عنك مشاعري. كنت أشعر بالذنب مرتين نحوك، لأنني أعيش ما لا تعيشينه، ولأنك لا تعرفين ما أعيشه.

حليم يتحدث عنك ويدعوك ظبية، كما أدعوك أنا، حيث لم أؤمن بأن اسم ديبة يليق بك. كنت أقول لحليم إن وصيتي، إن متّ، أن يأتي إليك ويخبرك بكل شيء.

لم يفعل حليم هذا كما أظن، فهو مثلك، يعتقد بأنني ربما متّ في ذلك النهار. حيث أشاعت عائلتي نبأ موتي، وأصرّ أبي: إنها ميتة بالنسبة لي، حتى تعود إلى رشدها، وتترك ذلك الراعي، وتذهب إلى أميركا.

حدّثت أبي، بوصفه رجلاً عاقلاً، فناناً ومثقفاً، قلت له إنني مغرمة بحليم ولن أترك البلاد، ولن أدرس الفن التشكيلي وتاريخ الفنون الغربية والنحت والرسم والتصوير. إن أمنيتي أن أتزوج وأنجب الأطفال، وأعيش في حور العين، كأية امرأة عادية.

حلم الفتاة العادية، كان يراه أبي انحطاطاً في الطموح، يريدني أن أكون بنتاً متميزة.

قرأت روايتك. سرّبتها جوليا لي: لم أقرأها، يقولون إنها حدثت في حور العين، موقّعة باسمك.

أنا أيضاً أكتب، منذ فراقنا، منذ خمس سنوات، لكنني لا أكتب قصصنا التي رويناها معاً، كما في حور العين، بل أكتب القصص التي لم تحدث بعد، والتي أجلبها من المستقبل.

أنا محبوسة هنا، في هذه الغرفة، في القبو، سرير وخزانة ملابس لا أستعملها، وحمام وتواليت ومكتبة وألوان. تخيّلي ما حاجتي إلى الألوان: ألوان أبي!

أعلّق الحاضر، أضعه جانباً، وأستجلب المستقبل. حياتي هنا مؤجلة ومعطلة، أدفعها لتمشي، عبر الكتابة. أما حياتي القادمة، التي أكتبها، فلن تأتي قبل خروجي من معتقل أبي.

أنا سجينة رأي يا ظبية. الفنان المثقف، الناشر، هو سجّاني. يحبسني لأكون امرأة معاصرة، بينما أنا أريد أن أكون امرأة عادية.

أكره الحداثة، حياة الحداثة التي يحدّثني عنها أبي، وتلتمع عيناه من الدهشة، تنفّرني. يقول إنني سطحية وعديمة الطموح، وكان من الحري بي أن أولد في عائلة متخلّفة، لأب أحمق، يجبرني على ترك المدرسة باكراً، والعمل وتنظيف البيت، بانتظار زوج المستقبل، الذي سيعاملني معاملة مماثلة لمعاملة أبي أو أسوأ. يعيّرني أبي بمستوى الحياة المرفّهة التي أمّنها لي، وبمساحات الحرية الفكرية المتاحة أمامي: «أفتح أمامك أبواب الغرب والمجد والشهرة، وتريدين الزواج من راعي غنم، لأنه غنّى لكِ داري العيون. في أميركا سترين عالماً لم تحلمي به، هذا الراعي الحقير، لا يستحق أن يكون خادماً في قصرك».

أحياناً، ألعن اللحظة التي رسمت فيها. ألعن معلّمتي التي اتصلت بأهلي، وقالت لهم إنني مبدعة وأن لديّ موهبة تحتاج إلى رعاية. وركض والداي لاهثَين إلى المدرسة، ليريا إبداعي. كنت في الخامسة من عمري، وكانت أولى تلك محاولاتي للرسم. محاولة أسعدت أبي الذي كان يحلم بأن يكون رسّاماً، فاعتبر أن حلمه يتحقّق.

«سيكون لها شأن عظيم في الرسم»، قال صديق أبي النحّات الإسباني وهو يتأمل مجموعة الرسوم التي تلتقطها أمي حيثما أرميها، وتحتفظ بها، لتريها لأصدقائها مفتخرة بعبقريتي.

منحتني حور العين، وأنت خاصة، نعم أعنيك ظبية، الكثير من المخيلة. كنت أرسم أمامك، بينما أنت تروين القصص. كنت دوماً تفتتحين الحكايات، تنشّطين مخيلتي، ثم أتابع معك. لم يكن بإمكاني اختراع صورة واحدة قبلك.. كان كل ما أفعله، بتحريض منك. كنت أنت التي تفتحين أعماقي، وتساعدينني على النزول إلى

عوالمي الباطنية والخروج منها ظافرة بمقاطع من الحكايات المكمِّلة لحكاياتك الأصلية، أو برسومات أدلقها على القماش.

لم يفهم أبي، وقد جهدت لأشرح له، أن الإبداع هو المخيّلة، وأن المخيلة تحتاج إلى حرية، والمناهج تقتلني. أكره المناهج، الصفوف، المقاعد، الصالات المغلقة، الكاميرات. أكره التكنولوجيا، وأحب البدائية. تشاجر معي، ثم شتمني. قال إني بدائية وجاهلة، وقلت له: بل هذا هو الفن، العودة إلى منابع الحياة الأولى.

كنت أشعر بالسجن في المدينة، وأتحرر في القرية. أنت فقط فهمت الحرية، وعشتِها. أنا أحسدكِ على حياتك يا ظبية. فعلاً أحسدكِ!

كنت تضحكين وتقولين إن صداقتنا تشبه تلك التي عاشها الأمير والفقير. وكنت أدعوكِ الأميرة، فأنا، وكما في تلك الحكاية، الفقيرة التي أثريتِ حياتها بمخيلتك وحكاياتك، فحررتِ الرسوم المحبوسة في أعماقي، عبر المخيلة.

كان أبي، وإصراره على الكتب ومدارس الرسم، والأساتذة الخصوصيين، السوط الذي يجلد رسوماتي، فتهرب وتنكفئ على نفسها، في العمق.

الأمان، هو الذي كان يساعد ألواني لتظهر، ولم أشعر بهذا الأمان إلا في حور العين، معكِ، ثم عرفت أماناً مختلفاً، أماناً مختلطاً بحنان واهتمام ورعاية، أمان الحب مع حليم.

أنتِ كنتِ ندّي، كانت إحدانا النسخة الأخرى للثانية، كنا متعادلتين. أما مع حليم، فالأمر مختلف. لا أعرف إن كنت أحسست بهذا نحو فرانكو. حين تجدين رجلاً من عالمك، صديقاً ولكنه حبيب أيضاً، تستمتعين بطعم رضابه في فمك، وترتعشين لرائحته في أنفك. حيث

تميزين رائحته قبل أن يصل إليك، فتتحولين إلى كلبة بارعة في عالم الروائح. ترتمين في حضنه، وتغفين للحظات، وكأنك داخل أرجوحة أو غيمة.

حين كان حليم يأخذني في حضنه، كنت أغمض عينيّ وهو يلعب بخصلات شعري، فأترك لروحي أن تتحرّر. تذكرين كيف كنا نمارس طقوس تحرير المخيّلة، كنت تعلمينني أن أنسى ما حولي، وأدخل في الحكاية، أن أصدّق الحكاية، حتى أتحوّل، وما إن نتحول إلى داخل الحكاية، حتى تأتي الجمل والحوادث، وكأنها موجودة من قبل، ولم نصنعها نحن، كانت بانتظارنا، لنكشف عنها الغطاء، فتظهر من حولنا.

مع حليم، طبّقت نصائحك، ولكن لتحرير الروح. كانت الوصفة هي: أصابع حليم في شعري، رائحته في أنفي، رأسي في حضنه، صوته في أذنيّ، يهمس لي، أو يدندن لي بصوت هامس، فأهبط. أحرر روحي من جسدي، فأترك جسدي قرب حليم آمناً، وأذهب بروحي هابطة إلى أعماقي، متفرجة على تلك الصور المعلّقة تحت، والتي تنتظر مني، أن أنظر إليها جيداً، أحفظها، أنسخها على القماش.

نمتِ؟ كان يسألني حليم حين تطول رحلتي. «بعتت روحي لهنيك»، كنت أجيبه، فيشدني إليه ويضمّني بقوة وحنان، ويقول لي هامساً: أنتِ جنّيتي!

أحببته، ورسمت كثيراً من وحي هبوطي إلى أعماقي، إلى عوالمي الخفية، حتى عني. مفاتيح الحب تختلف عن مفاتيح الصداقة. سامحيني، ولكنها الحقيقة، أحبك كثيراً، فأنت توأمي، لكن حليم هو أنتِ، شيء آخر. هو حب الرجل للمرأة. مع حليم، أحسست بأنني أنثى. وكرهت الحداثة أكثر. الطيران والحضارة والأكاديميات والمعارض والتلفزة والجمهور والصخب. كنت أحلم بالعيش معه، في بيته الطيني

في القرية المجاورة، «قرية الأرض الحمرا» كما يسمونها، لأنها بيوت من الطين. بيوت الفقراء.

ذهبت معه مرة يا ظبية. رأيت أمه الرائعة. سيدة في عمر أمك. خمسينية ممشوقة القوام، ابتسامة الرضا لا تفارق وجهها رغم الفقر. لديها عنزتان وعدة دجاجات وديكان وحمار. وكانت سعيدة. تعيش من بيع الحليب والبيض. وسعيدة. وحليم يشتغل في رعاية أغنام القرية. والده توفي منذ سنوات، وهو وحيد. حياتهم جميلة، ورث البزق من أبيه الذي علّمه ونمّى فيه حبه للموسيقى. حياة هانئة، من دون منغّصات، كما تصفين حياتك. من دون صدامات، من دون سلطات، من دون محرمات.

«حياة البقر»، هكذا وصفها أبي.

لم يفهم أن حياة البقر، هي الحياة التي أعشقها. لا أحتاج إلى تقييمات العالم، وأوصافه، لأكون سعيدة.

يريد لي أبي حياة يصفق لي فيها العالم، وأنا أريد حياة أستمتع بها. يستمتع أبي بتصفيق العالم، وأستمتع انا بجولاتي في أعماقي، وهذا لن يفهمه العالم المصفق، إلا بعد أن يرى أعمالي. أما أعمالي، فهي ترفض الخروج إلى العالم بالتصفيق. إنها كروحي، لها عوالمها المحفّزة، الخاصة، الحميمة. لا يفهم أبي المثقف، أن الإبداع خصوصية لا تنفع معه وصفات جاهزة.

شرحت له القلق الذي ينتابني. الأرق الذي أعانيه أمام مفردات العالم المتحضّر، التكنولوجي، المعلوماتي، عالم اللمس والأزرار، وأوضحت له أن طمأنينتي هي الابتعاد. حتى لو كان الابتعاد هو الظلام، والتخلّف كما يدعوه، فأنا أريد أن أعيش متخلّفة، ولكن منتعشة من الداخل، بروح طازجة.

قال إن حليم خدعني وجنّني، وأنه لا يمكن أن يكون العالم كله على خطأ وهو يسعى لاختراع « اللوحات التي تشتغل على اللمس» كما أصفها، من أجل راحة البشرية ورفاهيتها. وأن ينفق كل الأموال، والوقت، في البحث عن تطوير رفاهية البشر، بينما أسمّي هذا «قلق الحضارة»، لأرجع إلى عصور الظلام. سخر مني: تستحقين العيش في زمن الحرملك، ليكون حليمك هذا، الزوج المتعدّد الزوجات. يضربك ويهجرك في المضجع. وكتمت ضحكتي حين قال أبي «المضجع»، وتذكرت شجرة الجوز.

حرموني من حليم. لا أعرف ماذا حلّ به، أبي المتنوّر هدّدني: إن لم تذهبي إلى أميركا، سأخفيه عن وجه الأرض. بكيت وخفت وارتميت بين قدميه: لا يمكنك إيذاؤه، لن أغفر لك هذا، إنه روحي. كنت أتوسّل إليه، وأهدده بالوقت نفسه، كان عليّ استعمال كل السبل للحفاظ على أمن حليم.

أجل، أنا سجينة رأي. اعتقلني أبي في هذه الغرفة، لأنني حاولت الانتحار. قبل أن تطلع روحي، وجدته أمامي وقد قطع الحبل وأنقذني. كان مغمى عليّ، وكان ديب قد ذهب لإحضار أبي. ديب خدعنا يا ظبية.

خاف أبي من إعادتي لمحاولة الانتحار. أحضر لي طبيباً نفسياً تخيلي الحماقة- وقال الطبيب الغبي، إنني أعاني من نوبة اكتئاب. وصف لي حبوباً رفضت تناولها. وهكذا فتح الصراع بيني وبين أبي، كلانا عنيد ورأسه كالجدار. قال لي لن أغادر الغرفة إلا إلى كلية الفنون الجميلة في نيويورك، وقلت له، في اللحظة التي سينفتح فيها الباب، سأذهب إلى حليم.

حبسني حتى أتخلّص من جنوني وكآبتي وميلي للانتحار. تتخيّلين الدوافع؟

أنا سجينة رأي يا صديقتي، أفكّر بالمعتقلات السياسيات، اللواتي حُبسن بسبب آرائهن، كيف يمضين أوقاتهن الطويلة في المعتقل! الفرق بيني وبينهن هو رفاهية هذه الغرفة، الكتب، الملابس التي لا تلزمني لأني لا أغادر، الحمام النظيف، فوط العادة الشهرية المتوفّرة، مسكنات الألم، وطبيبي النفسي، الذي أعتبره تعذيباً إضافياً، وهو يجلدني بأسئلته عن طفولتي، منقّباً عن رغباتي الجنسية المكتومة تجاه أبي. هذا الأحمق، الذي تربّى على تقسيم العالم بنمطية ثابتة: صبيان أوديبيون، وبنات إلكترويات. وكنت أجلده بصمتي، وأتابع قصصي التي أكتبها في رأسي، قبل ان أدوّنها على الورق. الورق، هو فارق آخر بيني وبين سجينات بلاد القمع، ولكن ميزتهن عني، أنهن معاً، في تلك الغرف الصغيرة، المحتشدة بالنساء، تستطيع كل منهن، أن تنشغل بعالم الأخرى، تستطيع أن تعيش الزمن الراهن، بينما أنا لا راهن لدي، فأقفز إلى حياتي القادمة، المؤجّلة، وأنحّي راهني.

تصوري طيلة النهار، هذا الوقت الذي يمر من دون أن يحدث فيه شيء، أي شيء، وأنا ابنة الملل، والانطلاق في غابات القرية والركض في سهولها، والنوم تحت أشجارها، والثرثرة معك حتى وقت متأخر. أعيش بين هذه الجدران المغلقة، من دون أن يدخل الزمن إليّ. إنني اخترع الزمن القادم انتقاماً من هذا السجن.

لهذا أدفع أيامي نحو المستقبل، نحو الحياة القادمة، أحمل، ألد، أخترع ملامحها، تشبه حليم أكثر مما تشبهني، ولكن بحولة حسن، لأن حليم يحب حولة الحسن في عيني.

كنا نحلم، حليم وأنا، بإنجاب طفلة. أرادها بنتاً وكذلك أنا، ووافق حليم أن ندعوها أليس كما كنا نحلم أنت وأنا.

عشت هذه السنوات، حبيسة رغبات أبي، بانتظار حياتي القادمة

مع حليم. أعرف أنه ينتظرني، وما أن يُفتح هذا الباب، حتى أذهب إلى الأرض الحمرا، حيث تعدّ لي أمه البابونج بالليمون، وحيث أشهق بين ذراعيه، وفي الصباحات التالية أهمس له: أنا حامل، فيحملني ويركض بي حتى شجرة الجوز، حيث احتضنني أول مرة، وحيث لا تزال شهقة المتعة الأولى، عالقة بين أغصان الجوز.

الرواية الثالثة

مقهى شهرزاد

- 1 -

لدى شهرزاد Chez Chahrazad

استيقظت في الواحدة ليلاً، على كابوس الموت. كنت أقول في المنام: «يجب أن أموت، يجب أن أنهي حياتي». نمت باكراً الليلة، بعد أقراص مهدّئة، ترسم لي حياة أقل بؤساً، ولكن مفعول الأقراص انتهى كما يبدو، وعاودتني الرغبة في إنهاء حياتي.

ارتديت ملابس الخروج سريعاً: بنطال جينز أسود، وكنزة سوداء. وضعت إيشارباً سميكاً على عنقي، فالبرد قاتل في نهاية شهر كانون الثاني. نزعت معطفي الفضي الطويل المعلق قرب باب المنزل، وخرجت متجهة صوب النهر.

تجاوزت الساعة الواحدة والنصف، وأنا أسير بمحاذاة النهر، مفتّشة عن زاوية مناسبة أرمي نفسي منها في الماء، مستسلمة لفكرة أنني لا أجيد السباحة، ولن يمنعني هذه المرة من تنفيذ ما برأسي أي تراجع، أو لحظة تخاذل.

قريباً من «بونت نوف» أو الجسر التاسع.

قبل أن أرفع قدمي الثانية، ولا تزال قدمي الأولى فوق السور،

لمحت الأضواء تشتعل وتنطفئ في العتمة، ركزت قليلاً في العبارة، «لدى شهرزاد». هل أحلم؟ هل متُ وهذه حياة أخرى؟ يا للبرد! أرتجف من البرد والعتمة.

«لدى شهرزاد»، يلمع العنوان بأضواء تشعل وتنطفئ. اقتربت من المكان، شدتني الموسيقى وأنا أقترب. دفعت باب الدخول، وبغتة، في غمضة عين أو أقل، صرت في عالم آخر.

كما لو أنني أدخل آلة الزمن السحرية، فتنقلني إلى زمن آخر، هل يحدث هذا الآن في باريس؟ أسكن هنا منذ عشرة أعوام تقريباً، لم ألحظ هذا المكان يوماً، مع أنني أسير كثيراً على ضفاف السين. كيف لم أنتبه له قبل اليوم؟

لا أزال على العتبة، وكأنها عتبة فاصلة بين زمنين ومكانين مختلفين. كأنني وطأت أرضاً سحرية، من دون طيارة أو قطار أو باخرة. حين دفعت باب الحانة، وجدت المكان، هنا، ينتمي إلى عالم آخر.

رسومات غريبة على الجدران، كأنني في متحف قديم، أو مغارة، روائح بخور وتبغ وعطور. الموسيقى تصدح في المكان، وقبل أن أستوعب دهشتي، وأفهم أين أنا، انبثقت أمامي صبية فاتنة الجمال، سمراء ببشرة ذهبية، وعينين عسليتين كأنهما كرتان صغيرتان من الزجاج الملون. خرجَت من خلف الستارة الشفافة الخضراء، مرتدية ملابس طويلة، مطرّزة، وواسعة من تحت، ضيقة عند الخصر. تضع ما يشبه القبعة، تتدلى منها أقمشة ملونة شفافة، وقفت أمامي منحنية بابتسامة ساحرة، وبحركة من يدها، طلبت مني أن ألحق بها، فانصعت.

دخلَت غرفة كبيرة مليئة بملابس كثيرة، وطلبت مني أن أختار الثوب الذي يناسبني. كل الملابس تعود إلى القرن التاسع عشر على الأقل، أثواب أميرات وسيدات الزمن الفائت. اخترت ثوباً، ثم أخذت

مني ملابسي القديمة، ومحفظتي، ووضعتها في خزانتي، أقفلت عليها، وأعطتني المفتاح، الذي حمل الرقم: 75.

بشكلي الجديد، وكأنني امرأة قادمة من عصر آخر، ثوبي المختلف، حذائي، أقراطي وعقدي، دخلت المكان، يا لروعة المشهد!

أرائك ملونة، وسجاجيد، ومزهريات، ولوحات على الجدار، ومفارش طاولات ومخدات. ألوان وألوان وألوان، عالم ملوّن بإضاءة ملونة، والكثير من الروائح الغريبة، التي لا أعرفها لأسميها، أراكيل، مشروب، موسيقى، وراقصة ترتدي ملابس راقصات العصور القديمة. لم أكن في أوروبا ذلك الزمن، كنت كأنني في العصر العباسي، في تركيا أو العراق أو إيران.

اخترت أريكة برتقالية وجلست عليها.

ما هي إلا لحظات، وأنا مذهولة من المشهد، أحاول تسجيل كل هذا الجمال في مخيلتي، مندهشة من براعة رقص الصبية، وسحر الموسيقى، وروعة المكان، حتى اقتربت مني صبية ثلاثينية، في عمر تلك التي استقبلتني على العتبة، رحّبت بي وسألتني ماذا أريد أن أشرب؟

سألتها عن أنواع الشراب المتوفرة لديهم.

- هذه أول مرة تزوروننا فيها؟ سألتني الشابة.

- نعم، كنت أمرّ مصادفة، ورأيت اسم المحل فشدّني.

- أهلاً وسهلاً بك. كل من يأتينا لأول مرة، لا يفارقنا بعدها.

أشارت بيدها إلى صبية تجلس أمام رفوف من الزجاجات الملونة، فأحضرت قائمة الشراب.

لم أفهم شيئاً مما قرأت. كلها أصناف جديدة عليّ. لاحظت الصبية حيرتي، فقالت:

- أأختار لك؟

هززت برأسي موافقة.

قالت للصبية التي تجلس خلف "المشرب": هاتي لي زجاجة الرمان الزرقاء من الرف الثالث في المشرب.

أحضرت الصبية الزجاجة الزرقاء، وكأسين من الزجاج الأحمر.

رفعنا نخبنا، الصبية التي لا أعرف اسمها، وأنا. يا للطعم!

وحين سكتت الموسيقى، وتوقفت الراقصة، شعرت بقنوط.

- انتهت الحفلة؟

وقبل أن تجيبني السيدة الجالسة قربي، وقد بدأ إحساس لذيذ بالخدر يسير في جسدي، فأشعر بخفة وزني، وكأنني أتخفف من أثقالي، خفتت الأنوار، وعلى الفور، نُصب في المكان ما يشبه المنصة: طاولة صغيرة، عليها مفرش ملون بالخرز والقصب، وجلست صبية خلفها، ترتدي ملابس مختلفة أيضاً: ثوباً أخضر قاتماً يميل إلى الزيتوني، مطرزاً بالقصب، كمفرش الطاولة، وخرجت خلفها صبية أخرى، في العمر نفسه، ترتدي ثوباً مماثلاً، بلون ذهبي ومطرز بخيوط من الفضة، تحمل عوداً. جلسَت بجوارها.

قالت الصبية التي في جواري:

- الآن، بدأت الجلسة.

ساد صمت مفاجئ، وكأن الجميع يعرف القاعدة، وبدأت الصبية ذات الثوب الأخضر بالكلام:

"عمتن مساء سيداتي الكريمات، سادتي الكرام، سأروي لكم الليلة قصة القصر ذي الأربعين غرفة، حيث حذّر الزوج الغامض عروسه، أن تفتح باب الغرفة الأربعين. كانت العروس تملك المفاتيح الأربعين،

ولكنها لا تملك الحق إلا بفتح تسعة وثلاثين باباً. وأخذت في كل يوم، تفتح باباً واحداً فقط، كلما ذهب عريسها إلى الصيد، فتمضي كل يومها في غرفة واحدة..".

أين أنا؟ مَنْ هؤلاء النساء؟ كلهنّ في عمر واحد، التي استقبلتني على الباب، التي تجلس خلف المشرب، التي اختارت لي الشراب، التي ترقص، التي تعزف، والتي تسرد الحكاية. من هؤلاء!

لم أتمكن من متابعة الحكاية، شعرت بدوار خفيف، ورغبة مفاجئة في الرقص. وضعت كأسي على الطاولة، وقلت للصبية بجواري:

- أريد أن أرقص!

أخذتني من يدي برفق، وقادتني نحو صالة مجاورة، كان الجميع هناك يرقصون، وكان معظم الحضور، من النساء.

هل أنا في ناد للمثليات؟

- 2 -

خمر التفكيك، خمر التثبيت

رقصت طويلاً، كما لم أفعل في حياتي، وكنت أشعر بالسعادة. هل فقدت عقلي، كنت أفكر بالانتحار منذ ساعات فقط، فكيف انقلب مزاجي، ورحت أرقص ويغمرني شعور بالسعادة، وبأن الحياة جميلة. إنني لم أفلح بالانتحار، ثم تذكرت أنني لست مؤمنة بالله، فكيف أشكره؟ ثم أحسست بغتة بأنني مؤمنة، ولكنني لم أكن أعي هذا، فكأن ثمة ستاراً ما، بيني وبيني، يبعدني عني ويجعلني غريبة عن نفسي.

ماذا يحدث لي؟ كل تلك الأقراص الطبّية المدروسة في معامل ومخابر بحث، لم تمنحني هذه السعادة الغامضة. كان جسدي خفيفاً، ورأسي صافياً، وكأنني ورقة بيضاء، أو طفلة وُلدت للتو.

توقفت عن الرقص، ورحت أبحث بعينيّ عن تلك الصبية التي أحضرتني إلى هذه القاعة، فوجدت امرأة خمسينية ترتدي ثوباً أبيض مطرزاً باللآلئ البيضاء، تربّت على كتفي بلطف:

- أساعدك سيدتي؟

- نعم، أريد أوراقاً وطاولة في مكان هادئ، أريد أن أكتب.

قادتني السيدة إلى الشرفة، حيث طاولات مخصصة للكتابة. وهدوء كبير. الأوراق والقرطاسية موجودة بالكامل، كأنهم يقرأون أفكار زبائنهم في هذا المكان، قبل أن تخطر الفكرة على بال صاحبها، أو صاحبتها.

دلتني على جرس وأشارت: اضغطي عليه إن احتجت لأي شيء.

قالت السيدة ذلك واختفت.

ثمة علب سجائر ومنفضة وزجاجة ماء.

ورحت أكتب.

حين استيقظت في الصباح، وجدتني في سرير صغير، في غرفة صغيرة، تحمل جدرانها رسوم ذئاب وظباء كأنها ترقص.

نهضت من السرير لأجدني في ملابس الليلة ذاتها. فتحت باب الغرفة وخرجت. كانت السيدة الخمسينية تشرب القهوة وحدها جالسة على أريكة حمراء، وتستمع إلى موسيقى بصوت خافت.

نمتِ جيداً؟

- كما لم أنم في حياتي، أشعر براحة غامضة، وخفّة في جسدي.

- الليلة ستشعرين بالمزيد من الراحة.

- كيف؟

- سأخبرك لاحقاً.

قالت هذا وهي تسكب لي القهوة.

لم يسألني أحد هنا عمن أكون. كنت أخاف من هذا السؤال. فهل أصدقهم القول وأحكي لهم حكاية عائلتي غير المشرّفة. لكنهم لم يسألوني شيئاً. استقبلوني بحفاوة، ولم يطلبوا مني شيئاً في المقابل،

وجعلوني أنام بأمان. من هؤلاء؟ هل أنا لدى جماعة من المبشّرات بديانة ما؟

ابتسمت السيدة وكأنها قرأت فكرتي:

- هذه حانة، مجرد حانة، نهتم فيها بأولئك الذين تعرّضوا لجروح الروح، وخاصة من النساء.

ارتبكت قليلاً:

- مثليات؟

ضحكت السيدة متفاجئة.

- على العكس تماماً، نحن نعتني بالأرواح.

وشعرت بالخوف، ثم شعرت بالطمأنينة وأنا أنظر في وجه السيدة التي تحمل ملامح توحي بالأمان. وخجلتُ من ارتباكي، فقالت:

- كل ما يخطر في بالك، ينبع من داخلك، لا من الآخرين. تفسيرك للأشياء خارجك، لا علاقة له بالأشياء، بل بك أنت. نحن نصنع العالم بأفكارنا وتصوراتنا عنه، ونرسمه ونسمّيه، وفقاً لدواخلنا. الروح مرآة تعكس العالم، وكل ما ينعكس في الخارج، من صناعة الروح الداخلية.

- لم أفهم.

- هل أحضر لك أوراقك؟

تذكرت أنني كنت أكتب، ثم نسيت بعدها ما حصل.

هززت برأسي وأنا أشعل سيجارة من العلبة أمامي، وآخذ رشفة من فنجاني.

جاءت الصبية التي استقبلتني على الباب، حاملة أوراقي.

تركتني السيدتان، ورحت أقرأ ما كتبت:

"أقترب الآن من الخمسين. كنت أعتقد بأن الزمن كفيل بحلّ الأزمات، ولكنني اكتشفت أن الاتكال على الزمن، هو تأجيل حساب يتراكم، ولا بد من أن يأتي ذات يوم. حين أفشل في كل مرة عن القيام بهذه الحسبة، أنهار وأفكر في الانتحار. كل هذه الأقراص التي أتناولها منذ أكثر من عشر سنوات لم تفعل سوى مُراكمة الألم، وحشره، وتغطيته. وكلما غطيته كنت أظن أنني أخفيه، بينما كان يغوص فيّ أكثر ويؤلمني أكثر. خمسون عاماً تحياها إحدانا غير كفيلة بالنضج وفهم الذات. لماذا فعلت بنفسي هذا؟ لماذا هربت من المواجهة؟ أطفأت النور، واستسلمت للعتمة والبكاء؟

كان يمكن لحياتي أن تكون أفضل، لو أنني كنت أكثر شجاعة قبل عشرين سنة. هل تأخّر الزمن الآن؟ هل عليّ فعلاً أن أنتحر فأتحرّر، أم عليّ أن أعيش وأعوّض ما لم أفعله؟

أنا امرأة جبانة، هذه هي الحقيقة.

اخترت الطريق الأسهل. الأقراص أحتمي فيها، وأخبّئ جُبني. كان بإمكاني أن أكون شخصاً أفضل، شخصاً أحب أن أكونه، لكنني خفت من أن أكون ما أريد، وصرت شخصاً سطحياً سهل العبور، يعيش كما الآخرون، مندمج، مبتسم. كل هذا من الخارج، لهذا، وكلما فكّرت بي بعمق، خرجت لي تلك المرأة التي حلمت أن أكونها، وعاتبتني، فقررت أن أقتل نفسي، لأنني لست جديرة بي، بتلك التي لا تزال في داخلي، وتحلم بفرصة أن تكون. متى، وقد بلغت الخمسين؟".

توقفت عن القراءة. لقد كتبت الكثير. هناك أوراق أخرى، أنظر فيها سريعاً، بعضها يميل للضحك، وبعضها رويت فيها ذكريات جميلة مع أمي. ليست كل أوراقي بهذه القسوة، وكأنني كلما أمسكت ورقة، ثمة امرأة أخرى. في كل ورقة، كنت امرأة مختلفة.

عليّ أن أعود إلى البيت. أنهض وأبحث عن الصبية التي أخذت ملابسي وحقيبة نقودي وأعطتني المفتاح. إنه هنا، في جيب الثوب.

كانت تجلس على أريكة صفراء، في صالة تطل على الصالة أو الغرفة التي كنت أجلس فيها، وتقرأ في كتاب. نهضَت حين رأتني، وقادتني إلى غرفة الملابس. غيّرتُ ملابسي، وحين سألتها عن الحساب قالت:

- الزيارة الأولى تقدمة المحل، الحساب يبدأ من الزيارة التالية.

- حسناً، الليلة إذاً.

- نفتح في منتصف الليل.

وغادرتُ حاملة أوراقي، سعيدة، لا باكتشاف المكان، بل باكتشاف أجزاء خفية عني، كتبتها البارحة وأنا شبه مخمورة أو ربما في نوع من الغيبوبة اللطيفة التي أدخلتني إلى نفسي. كتبت أشياء لم أكن أعرفها عني، ولم أقلها لا لصديقة ولا حتى لمحللتي النفسية.

كثير من الأوراق. لن أعود إلى "شهرزاد" حتى أنهي قراءة كل ما كتبت.

***

ثلاثة أيام وأنا منهمكة في قراءة ما كتبت، وتحليله وتفسيره. صفحات اكتفيت فيها بوضع أسماء في سطور، وبجوارها نقاط، وصفحات فيها أماكن داخل دوائر. وصفحات تحمل ما يشبه المعادلات الحسابية أو الكيميائية. رموز كثيرة، لم أشرحها وأنا أدوّن بكثافة، كان عليّ أن أفهمها في الأيام التالية. لم أذهب إلى حانة شهرزاد، رغم الفضول الشديد، والشوق للذهاب، أردت تفسير ما كتبتُه أولاً.

مرّت ثلاثة أيام. استنفدت كل فرصي. فسرت ما استطعت، وخاصة أسماء الأشخاص والأمكنة. وتحت تأثير المشروب الغامض الذي

احتسيته هناك، قفزت إلى ذاكرتي أسماء أشخاص وأمكنة، كانت غائرة منذ زمن بعيد. مثلاً، وضعت اسم خالتي في سطر وتحته داخل دائرة «كابينة الدكتور هنري». فتذكرت أنني كنت في التاسعة من عمري تقريباً، حين كانت أمي توبّخ خالتي لأنها قررت أن تجهض عند الدكتور هنري، وأنها اتخذت قرارها بحماقة من دون أن تُعلِمَ أحداً. ولكن ما أهمية هذه الحادثة بالنسبة لي، وما أهمية «أقراط ريتا»، التي وضعتها داخل مستطيل ورسمت حولها أوراق ورد تشبه الأقحوان؟

ريتا كانت صديقتي في السنة الجامعية الأولى، وكانت غالباً في عملية بحث عن فردة قرطها، إذ من دون أن تنتبه، حين تكون مستغرقة في مشاهدة أو سماع أحد ما، تنزع قرطيها، وتضعهما في مكان ما. وحين تخرج من استغراقها، تبحث عن القرطين، تجد الأول غالباً، وغالباً ما توتّرنا بالبحث عن القرط الآخر.

حسناً، ما أهمية كل هذا؟ ما الذي يجعل كل عالمي يندلق برمته على الورق! أعتقد بأنني يجب أن أعود إلى الحانة، ربما أعرف الجواب هناك. ثم إنني لا بد أن أعاود الاستمتاع بالموسيقى والرقص، وحكاية تلك الساردة التي تقصّ روايتها على أنغام عزف العود.

***

المكان مغلق. اللوحة الضوئية مطفأة، والصمت يسترخي بجوار النهر. دفعت الباب، فوجدته مقفلاً. نظرت إلى الساعة، كانت تشير إلى الثانية عشرة إلا عشر دقائق.

بانتظار انتصاف الليل، أشعلت سيجارة أداري بها توتّر الانتظار.

يصفتي زبونة سابقة، صرت أعرف الإجراءات. أُضيئت اللوحة في تمام الساعة الثانية عشرة. جاءت الصبية لاستقبالي. اتجهنا صوب غرفة الملابس. اخترتُ ثوبًا مختلفاً، بنفسجي اللون، وحذاءً ذهبياً.

في الصالة، جلست في جهة المشرب، على أريكة بنية اللون مزركشة بخيوط ذهبية، تحمل وجوه ذئاب وظباء.

أحضرت لي الصبية ذاتها، التي جلست بجواري، زجاجة فيها مشروب ذهبي اللون، بلون القمح. لم يكن من أنواع الخمر التي أعرفها. تذوّقته، وكان له طعم القمح، كأنه من الخبز أو البسكويت بطعم الحليب وجوز الهند. طعمه لاذع لم أعرفه من قبل.

- خمر التثبيت.

قالت الصبية.

فتحت فمي مندهشة كالأغبياء، تلك الحركة التي كنت أسخر ممن يفعلها.

ابتسمت الصبية ونهضت، لتتركني وحدي.

على الطاولة بجواري، ثمة رجل ستيني يصفق للراقصة، ويرتشف من شرابه. يتوقف عن التصفيق، يدوِّن في دفتر أمامه، ثم يعود إلى التصفيق مع الموسيقى. كأنه رجل متعدد الشخصيات أو المهارات. يصبح جادًّا حين يكتب، يعبس، يتجهّم، ثم يضحك وهو يصفّق.

كما لو أنه انتبه لي، وأنا أختلس النظر إليه، فلوّح لي بيده بلطف ورفع كأسه محيياً، وفعلت مثله.

سمعت الحكاية كاملة هذه المرة، كانت تحكي عن ثلاث أخوات شابات جميلات، أجبرهنّ والدهن على الزواج من ثلاثة رجال أثرياء مسنين. وروت مطوّلاً مغامرة البنات الثلاث، حتى استطعن إيصال الرجال إلى المتعة غير الجسدية، ووصولهنّ إلى المتعة ذاتها، عبر اختراع أشكال أخرى للمتعة، لا يعرفها العالم الكسول، ولم يجرّبها.

بعد انتهاء الحكاية، شعرت برغبة في تدخين الأركيلة. طلبت أركيلة،

ورحت أدخّن، مع أنني لم أفعل من قبل، حتى سجائري المارلبورو لم أغيرها منذ عشرين سنة.

الصبية ذاتها التي حضّرت لي الشراب مرتين، اعتنت بنوع التبغ الذي وضعته في الأركيلة. كان خليطاً من نكهة التفاح والعنب والنعناع. ومع المشروب ذاته، القمحي بالحليب وجوز الهند اللاذع قليلاً، بدأت أشعر بتخفف في جسدي، وصارت تأتيني الأفكار على شكل جمل قصيرة، كأنها تعريفات، ورحت أدوّنها، كأنني أستخلص نتائج مخبرية.

كنت أكتب أشياء غريبة عليّ، أشياء أكثر جرأة واختصاراً ووضوحاً. وحتى على صعيد الشكل، عبارات لا تحتمل المطّ والإطالة.

وصفة السعادة:

عليكِ التوقف عن كل شيء، والبدء الآن.

وصفة الرضا:

الذين أخشى أحكامهم، أنا أفضل منهم.

وصفة المواجهة:

يجب أن أروي كل شيء.

كيف أنجح؟

من منا نجا!

وهكذا. فُتات من الكلام، شذرات وشظايا. أدخّن وأشرب وأكتب. ثم فجأة، نهضتُ، مزقتُ كل تلك الأوراق، ورميتها في سلة الزبالة، في زاوية الصالة، وبحثت عن السيدة الستينية ذات الثوب الأبيض المطرّز باللآلئ البيضاء، كانت تدخن وهي ترسم وسط الضجيج والموسيقى. جلست بجوارها، لم تلتفت إليّ ولم تتوقف عن الرسم، قلت لها بصوت منخفض: أريد ليلة لي.

نظرت إليَّ مستفسرة، فأوضحتُ:

- أريد أن أحكي ذات ليلة.

ابتسمت وهزّت رأسها برضا.

في الليلة التالية، بعد أن أمضيت نهاراً بالغ الحيوية، لم أتناول فيه أقراصي، وكنت أشعر برضا عن نفسي، كما لو أن الحزن والاكتئاب فارقاني.

ذهبت بعد منتصف الليل، صرت أعرف الطقوس. ذهبت إلى غرفة الملابس، اخترت هذه المرّة ملابس مختلفة: بنطالاً واسعاً وطويلاً من القماش الفضي اللماع، وفوقه سترة من الحرير الأحمر، وشالاً ملوناً بالأخضر والأزرق. وقد أخذتني الصبية ذاتها، واسمها ياسمين إلى غرفة الماكياج، فرتبت لي مليكة شعري، وكأنني صبية في العشرين.

عدت ثلاثين سنة إلى الوراء. وعلى أنغام العود جلست مكان الحكواتية، ورويت قصة بدت غريبة لغيري، وأنا أحكي عن البنت آنييس، التي يرميها والدها كل يوم في الغابة البعيدة، وتُمضي ليلتها، باحثة عن طريق البيت، وفي كل ليلة تمرّ بأخطار مختلفة. وفي كل ليلة تصل إلى البيت مدماة محطّمة من التعب، لتعاود، بطريقة سيزيفية عمياء، العودة من الغابة، في كل ليلة.

كنت أتحدث عن آنييس التي هي أنا. ولكنني أروي لا أشرح، أشهق كما رأيت الحكواتية تفعل. أنفعل، أرفع صوتي، أخفضه، أقلد صوت الريح، أصوات الذئاب. كان ثمة أحد بداخلي يلقنّني الكلام، لم أحضّر الحكاية، ولم أكتبها، كان عليّ فقط، أن أتناول كأساً من الزجاجة البيضاء المزركشة بصور ثعالب، كما نصحتني «سيدة الشراب»، (هكذا صرت أدعوها بيني وبين نفسي) ورويت حكايات كانت غارقة

في داخلي، وقد نسيتها، إلى أن جاءت سيدة الشراب، لتزيح الصخرة عن طريق السرد، فيندلق الكلام والقصص.

***

«أنت لا تصلحين لأي شيء»، هذه الكلمات تكاد تكون خلاصة تجربتي مع أمي.

كانت أمي امرأة متطلبة جداً، لم يكن يعجبها أي شي.

تزوجها أبي للسبب ذاته، بسبب فوضويته، ولا مبالاته، بل وعدميته كما شرح لي مراراً. كان بحاجة إلى امرأة ضابطة. هكذا كان يصف أمي، التي كانت تشبه رجال المحكمة أو الشرطة في سلوكها الناقد، النقّاق، الذي لا يرى إلا عيوب الآخرين، يتأمل طويلاً في أي شخص أو حدث أمامه، ليجد الأخطاء، ويطالب بمحاسبة مرتكبها.

كان يمزح معها: سيدي الجنرال. وقال لي ذات مرة: لو لم تكن كلوديا زوجتي، كان مصيرك ابنة شوارع. أبي اللامبالي، المستهتر، العدمي كما يقول عن نفسه، بزواجه من كلوديا، أمي، لم يكن يأتي بسلطة ضابطة له فقط، بل لي أيضاً.

أراد أبي أن يجد ضابطاً لانفلاته، إذ كانت جدتي، أمه صوفيا (يا لطرافة عدم علاقتها باسمها) امرأة كحولية، ماتت في الشارع، نتيجة لإدمانها المفرط للكحول. أما والده، فرانسوا، فلم يكن يقلّ حماقة عن صوفيا، إذ مات بالذبحة القلبية.مات حين خسر بيته وسيارته في آخر لعبة قمار قضت عليه.

من هذا المزيج العدمي وُلد أبي، جيروم، وارثاً عشق أبيه للمقامرة، وشغف أمه بالكحول، فكان رجلاً مهووساً بالسفر وارتياد الحانات والتقيؤ في آخر الليل، ومعاشرة الغانيات وبنات الهوى. وفي النهار

يلتقط رزقه، عبر العزف على الغيتار أمام محطات المترو. يتسوّل بعض النقود، التي تكفيه لشراء بعض الخبز والنقائق والجبنة والنبيذ.

كان أبي ينام في محطات المترو. وهو من ذلك الصنف الذي يدعى الكلوشار. حياته غنية وتحتاج مني إلى مساحات طويلة من السرد لأملأها، خاصة حياة التشرّد المدهشة، المليئة بالتشويق وعدم الملل. ففي كل ليلة، تنتظر أبي حكاية ما، كان يتمنى أن يكتبها.

في كل تلك الفوضى، اللابيت، اللامكان الثابت، التشرد، الكحول، الحانات، أصدقاء العبث، كان أبي يكتب الشعر. أجل، كان يعتبر نفسه وريثاً روحياً لرامبو.

***

في إحدى الليالي، كانت كلوديا عائدة من العمل، لاهثة للحاق بآخر مترو، وإذ يتعطّل المترو، يغادر الناس المنتظرون المحطة، للبحث عن طريقة أخرى للوصول إلى وجهاتهم، بين الباصات أو سيارات الأجرة، أو الركض حتى أقرب محطة، واختيار مترو آخر، يكون الأقرب إلى مكان الوصول.

كانت كلوديا مرهقة من العمل، وكادت تبكي قهراً. جلست قليلاً ليس ببعيد عن مجموعة السكارى على رصيف المحطة، يستمعون إلى عزف أحدهم، ويغنون، إلى أن نهضت واحدة من بينهم وراحت ترقص.

أعلنت الموظفة في المحطة، عبر المايكرفون، بأن المحطة ستُغلَق وعلى الجميع مغادرة المكان. هذا الإعلان عادة لا يشمل هؤلاء الكلوشار الذين تُعتبر هذه الأماكن محال إقامتهم، خاصة في الشتاء، إذ في الصيف، ثمة أمكنة كثيرة، على ضفاف السين والحدائق وتحت الجسور.

جاء موظفو شركة المواصلات الذين يشرفون على المترو، وأعلموا الجميع بضرورة المغادرة، لكن كلوديا المرهقة، لم تجد نفسها، إلا منخرطة بين مجموعة الكلوشار.

منذ تلك الليلة، أخذت حياة جيروم، وكلوديا، طابعاً مختلفاً.

لن أروي لكم سيرة والديّ في سطور. المهم أن أمي الممرّضة الرصينة العاقلة الدقيقة، وقعت في غرام الشاعر الرامبوي الذي لا يغتسل لأسابيع، ولا يحلق لحيته. لكنه الغرام!

تغيّرت حياة أبي، أو هكذا بدا. وبعد أسابيع قليلة، علمت كلوديا بوجودي في رحمها.. وهكذا.

كان الصراع عنيفاً بين لا انتماء أبي، وميله للانفلات، ورصانة أمي ودقتها وميلها لحساب كل صغيرة وكبيرة، وقيادة الحياة وفق جدول دقيق، بالساعات والدقائق والثواني.

وجئت أنا.

عشت مع أمي، لأن أبي يختفي لأسابيع، ثم يعود باكياً منهاراً، طالباً الصفح، وكانت كلوديا رغم كل شيء تحبه.

وحين صرت أكبر قليلاً، وسألتها ذات يوم، كنت حينها في التاسعة من عمري، ما الذي يجعلها تحتمل حماقاته؟ أجابتني وهي شبه شاردة:حين تكبرين ستفهمين أن هناك رجالاً، لا نستطيع هجرانهم. أعتقد اليوم، أنه كان لأبي سطوة جنسية على كلوديا، أجل لقد كان رجلاً وسيماً، ولم يخفِ التشرد والعبث والعدمية ميزاته الذكورية، حتى أنا، قلت له ذات يوم، كما تردد معظم البنات في عمري: أريد أن أتزوجك. حضنني بشدة يومئذ، وقال لي: أمثالي يصلحون للعشق فقط! ثم همس لي: لا تتزوجي أبداً، اكتبي، أنت وريثة عائلة دو مارتان.

آمن أبي أنه يملك مزاج فنان، وأن أمثاله وأمثال أمه وأبيه، لم يولدوا ليعيشوا، بل ليحيوا. وكان مَثَلُه قول ت. إس. اليوت: أين هي الحياة التي ضيّعناها بالعيش.

كان يقول إن أمي تعيش ولكنها لا تحيا.

مات أبي باكراً، مثل أمه، بسبب إفراطه في تناول الكحول.

ربما لو كان ثرياً، لمات بذبحة قلبية مثل أبيه، وهو يفقد أمواله مقامراً.

مات أبي، ولكنه كان راضياً عن حياته التي عاشها، وراضياً أكثر، أنه أنجبني.

«كما أنجبني والداي العدميان، وأنا ممتن لهما لأنني جئت إلى الحياة، أشعر بالسعادة لأنك هنا، في الحياة، وبالرضا لأنني اخترت لك أماً عاقلة، قد تقيك الموت متشردة في الشوارع». هكذا قال لي قبل أن يفارقنا إلى الأبد.

كان أبي موقناً بأن الرجال هم الذين ينجبون، وبأنني سأولد من أية امرأة يقذف بمنيه داخل رحمها، بينما لو أن كلوديا استقبلت مَني رجل آخر، لما كنتُ أنا، آنييس.

كما لو أنها تحاصر القدر كي لا أرث جيروم، عاملتني كلوديا، الجنرال، كأنني أعيش في ثكنة عسكرية.

التزام بجداول دقيقة لا يمكن الفرار منها، مواعيد الاستيقاظ، الطعام، التلفزيون، الدراسة، الخروج مع الأصحاب..

كانت تتهكّم على أي فعل قد يشي بميولٍ فنية، تأخذني إلى الكنيسة في كل أحد، لتثبّت لديّ حالة الطاعة والانضباط، فلا أنحرف نحو الفن أو الكحول أو المغامرة.

لكن جينات عائلة دو مارتان، وجينات جيروم خاصة، كانت تنهشني. كنت أكره أمي وحياتي معها، إلا أنني كنت جبانة، فلم أتمكن من إزاحة سلطتها، عبر الضحك واللامبالاة، كما فعل جيروم دائماً معها، ذاهباً ليحيا خياراته المنفلتة، اللامحسوبة، فهي في النهاية أمي أنا، لا أمه.

ماتت أمي منذ عشر سنوات.

ماتت وهي لا تعرف أنني أكتب في السرّ.

ماتت من دون أن ترى أوراقي المكدسة تحت طبقات المجلات الترفيهية السخيفة، التي تُسعدها، وتطمئنها على سويّتي كباقي البنات.

ماتت وتركت لي إثم الكتابة، وإثم الضوء.

نعم، أخاف من الضوء.

لا أستطيع احتمال أن يعرفني أحد كما أنا.

أنا آنييس دو مارتان، معلمة اللغة الفرنسية، لا أكثر. أصحّح مواضيع الإنشاء لطلبتي، ولا أستطيع أن أحيا بنظرة متميزة من أحدهم أو من قارئ: آه، أنت روائية!

أخاف، أرتجف من فكرة أن يراني أحد كما أنا. بيني وبيني، يأتيني صوت أمي على الفور: أنت لا تصلحين لأي شيء.

سيقول لي القرّاء: ها، أنت روائية؟ ثم يضيفون عبارات لاذعة. لا، سأخفي طويلاً هذه المخطوطات، التي أراكمها منذ عشرين سنة. ليعرفوا أنني أكتب، حين أموت، ولينشروا كتاباتي إن أرادوا. لن أرى نظرة أحد، ولن أسمع عبارات النقد والتقزيم، إذ ربما «لا أصلح لأي شيء».

ابتسمت شيراز وهي تشعل السيجارة العاشرة ربما، وقالت لي:

- حديثك هذا، هو ما أدعوه نتيجة خمرة التثبيت.

ثم شرحت لي، آلية الشراب التي اشتغلت عليها طويلاً، قبل أن تأتي إلى هذا المقهى، وكيف استفادت من دراستها في الكيمياء، ومهارتها الشخصية، والموروثة من جدّتها الفارسية، فاخترعت صنفين من الشراب، الأول، ما إن نشربه حتى تتدفق كل المعلومات، ثم يأخذ الشارب بفصل المعلومات المهمة عن الأقل أهمية، وهنا تبدأ عملية التفكيك. لفهم نفسك، تشرح شيراز، عليك بتفكيكها.

- وخمر التثبيت؟

سألتها.

- هو استخلاص الزبدة الذاتية من التفكيك. تفكيك وتكرير المعلومات، كما في عمليات تكرير النفط أو الزيت، حتى تصلي إلى خلاصتك المعرفية وجوهرك العميق، فتكتشفي طريقك، وتعرفي ذاتك.

- ذاتي، أنني كنت أقتل أبي، بدلاً من قتل أمي!

هزت شيراز برأسها، واقترحت عليّ كأساً من مشروب جديد، سمّته: شراب الاختبار الأول.

ودخلتُ التجربة.

- 3 -

فنانات من أجل السلام

حين رأت أليس فيلم عليا، حاولت الاتصال بها.

في فيلمها الروائي الأول «الآخر المشتهى»[1] تطرح عليا نوعاً من السينما التي يصعب تصنيفها، ويمكن أن تقع بين خانة السينما الروحية، أو السينما الفلسفية، مع الاهتمام بالصورة وغرابة الموضوع.

هي خليط ربما من حلمية أو غرائبية كيراساوا، وفي الوقت ذاته، تحمل النفَس الواقعي.

كانت عليا آنذاك تقيم في كندا، وجرى التواصل بينهما عبر الفيسبوك، حين بحثت أليس عن عليا، فوجدتها أرسلت لها طلب إضافة، وتم التعارف بينهما.

منذ الرسائل الأولى المتبادلة بينهما، شعرت الفتاتان بأن ثمة الكثير مما يربطهما. عليا المخرجة المصرية، التي درست السينما في القاهرة، ثم غادرت إلى كندا للحصول على الدكتوراه في

(1) عنوان فيلم للسينمائية السورية علياء خاشوق.

الإخراج السينمائي، وأليس خريجة الفلسفة من جامعة السوربون الثانية، والتي تعدّ أيضاً لرسالة الدكتوراه. ثمة الكثير من العوالم المشتركة بينهما.

عليا الرحّالة الروحية، والتي من دون أن تلتقي أليس، كانت قادرة على فهمها، من دون استعمال الكثير من اللغة، إلى أن صارت أليس تسميها مازحة: عرّافتي.

كان هاجس أليس هو الفلسفة في السينما، وقد اختارت الفلسفة شغفاً بها، وكانت تحلم بإعادة المجد للفلسفة بدل الرواية، التي شغلت العالم أكثر.

كما لو أن صراعاً داخليا يتنازعها بين الرواية والفلسفة. أُغرمت بالتفكيكية خاصة، وبجاك دريدا. وهو أحب الرواية أيضاً، وقال إنه كان يتمنى أن يكتب الرواية.

كانت أليس مغرمة بالفلسفة وتعتبر أنها جذر وأصل لكل الفنون الأخرى. وكانت في الوقت ذاته، مأخوذة بالفنون التي ترى فيها رؤية ابداعية للعالم، وتحب السينما على نحو خاص. ولم يكن موقفها هذا إهمالاً للرواية أو إقصاء لها. بل كانت تراها وسيلة للابداع في رؤية العالم.

لهذا قررت دراسة الفلسفة وعلاقتها بالفن. فدرست فرويد في مجال الدراسات النفسية، وإن لم تكن نظرتها كلاسيكية مقتصرة على تعريف فرويد للعالم، بل مالت إلى نقده، ووجدت بعض الملامح في أبحاثها لدى ميشيل أونفري، وأعجبت كثيراً بسارتر وكامو، وأعجبت بما انتجاه من أدب، فوجدت أن سارتر الفيلسوف وكان بإمكانه أن ينمّي حالته الأدبية، مع أن الفلسفة أخذته أكثر، فقد كتب «الغثيان»، التحفة التي استغرقت أليس في قراءتها، وأحست

بأن سارتر أقرب فيها إلى جوهره الإنساني، مما كان مثلاً في «الوجود والعدم». بينما كامو أخذه الأدب وأخلص له.

لم تكن أليس ترى في سارتر فيلسوفاً، بل كانت بطريقة ما، تشعر ببعض المقت صوبه، فهو في رأيها نرجسي حاول سحق كامو وسيمون دو بوفوار معاً، فاشتغل على نجوميته وترك سيمون تعيش في ظله.

العلاقة بين الفن والفلسفة كان موضوع أطروحتها: الفلاسفة الذين اشتغلوا على الفن، والفنانون الذين عبّروا عن مواضيع فلسفية، كما لو أنها تشبع شغفها بالفن والفلسفة معاً، وتحقق حلمها في إعادة المزاوجة بين الفن والفلسفة.

لهذا السبب جذبها فيلم عليا، وحاولت التواصل معها. لكن عليا، وعبر حوارات طويلة، عبر الفيسبوك أولاً، ثم عبر السكايب، شدّت أليس صوب الفن.

مع تنامي الحوار، أسستا، عليا وأليس، صفحة عبر الفيسبوك، وجعلتاها مفتوحة للجميع. جرى الحوار باللغة الفرنسيّة وشارك فيه قرّاء كثر، وأدى إلى تطوير فكرتهما حول الفن، ودوره في التحريض على التفكير.

انضمام بعض النساء مع الوقت كان التفاعل من النساء أكثر من الرجال، وغلب الطابع النسائي على المجموعة، على الرغم من التفاعل الذي أبداه بعض الرجال. وقد جمعت الصفحة فنانات وبعض الفنانين أيضاً، وانصبّ النقاش على المنطلقات الفلسفية للفن، وعلى دور الجانب الروحي، أو الصوفي، من دون أن يكون له علاقة بالدين، ولاحقاً اقتصرت المجموعة على بعض النساء الفنانات. معظم النساء في المجموعة كنّ يتحدّرن من منطقة الشرق

الأوسط، وإن كانت غالبيتهم تعيش في فرنسا، وفي باريس على الخصوص، ومع تفاقم العنف في تلك المنطقة: تركيا، العراق، إيران، السعودية، لبنان.. أسست المجموعة جمعيّة في فرنسا، وانتُخبت أليس رئيسة للجمعية. أطلقوا على الجمعية اسم «فنانات من أجل السلام»، وجاء في بيان التأسيس أن أعضاء الجمعية يهدفن إلى مناهضة العنف عبر الفن، مؤمنات بأن الفنّ يخلق طاقة إيجابية نريد توظيفها لإشاعة ثقافة وروح السلام في مواجهة العنف المتزايد الذي يدمّر حضارات صنعت إنجازات كبرى على مستوى الفن كان لها تأثير كبير في الحضارة الإنسانية. وهذه الانجازات تحتاج إلى حماية من نتائج هذا العنف.

وقد شاركت فنانات الجمعية في برامج «فنّ الشارع» كما أطلقت حملات كان لها تأثير كبير على لفت النظر إلى المخاطر التي تتعرّض لها الحضارة الانسانية، وإلى الآلام التي تعانيها شعوب تلك المنطقة.

مع الآمال التي أطلقها «الربيع العربي» تركت عليا كندا، وذهبت إلى مصر، وقد أنهت رسالة الدكتوراه. في السنة التالية أنهت أليس أيضاً رسالتها، وقررت الذهاب إلى مصر هذا البلد، الذي زارته منذ سنوات بعيدة مع والدها لمرة واحدة، ومسّتها روح الفراعنة، كما تقول.

كان لقاء أليس بعليا حدثاً خارقاً في حياة الاثنتين معاً.

من اللحظة الأولى لوصولها إلى القاهرة، شمّت أليس رائحة مختلفة في المدينة. وهي تستقل التاكسي من المطار، متجهة إلى الفندق الذي ستقيم فيه، أحسّت كما لو أنها ترى القاهرة بعينين جديدتين.

في الطريق إلى الفندق، كانت رائحة القاهرة مختلفة. أصغت أليس لوشوشات الفراعنة، واختلط عليها الأمر للحظة، كأنها داخل فيلم (عروس النيل). كانت تسمع همس العرائس المتوفيات في اعتقاد العالم، العصيّات على الموت، كما تعرف هي، وراحت هاميس ابنة آتون، تتقافز كفراشة حول أليس كيفما تلفّتت.

حين وصلت سيارة الأجرة إلى ميدان التحرير، خفق قلب أليس بشدة، وتذكرت المشاهد التي رأتها على شاشة التلفزيون، تلك الجموع الغفيرة التي صرخت (إرحل) ولوَّنت صرختها بالأضواء وسجَّلتها على جدران المدينة. طلبت أليس من السائق التوقف قليلاً، رغم تعب السفر، إلا أنها نزلت من السيارة، وسارت عدة خطوات داخل الساحة، خلعت حذاءها ومشت بحذر وبطء، كأنها تتحسّس عبر مسامات قدميها أثر الثوار. كما لو أن روح الفراعنة اختلطت بآثار أقدام الغضب المصري، فتشرّبت خلايا جسدها ذلك المزيج، إلى أن امتلأت بضوء يخترق روحها. انتظرها السائق في الشارع الرئيسي الذي يلي التمثالين المنصوبين لرأسي الأسدين، ظلت ممسكة بحذائها تحت إبطها الأيسر، وكأنها خارجة من مكان مقدّس، واتجهت إلى السيارة، رافضة انتعال حذائها من جديد. نظر إليها السائق بغرابة، ثم قال: نعم يا أختي، هذه ثورتنا التي أذهلت العالم.

كان فخوراً بثورته، وراح يستفيض بالشرح والتحليل حول وصول الإخوان إلى الحكم، مؤكداً لها أن هذا ظرف موقت، وستعود الحياة التي يريدها المصريون، تلك التي ثاروا من أجلها.

لم تكن أليس تحتاج إلى شروحات السائق، فهي تثق بالمصريين، من أسقط مبارك، قادر على إسقاط الإخوان ولن يقبل ديكتاتوريّة

جديدة تلبس لبوس العسكر.. هي مراحل لا بدّ من قطعها خطوة خطوة، وتذكّرت تونس، والشّابي يترنّم كما ترنّم كل الثوّار: إذا الشعب يوماً أراد الحياة.

لم ينهِ السائق الأسمر الذي يشبه أحمد زكي، أحد ممثليها المفضلين حكايته، حتى وصلت إلى فندقها المطل على النيل، ذلك البرج الكبير الذي يبدو وكأنه معلّق فوق النيل.

من الشرفة، سمعت الأغاني التي تطلقها المراكب العابرة، وشمت رائحة شواء الذرة على ضفة النيل، وبغتة، أجهشت بالبكاء.

ذلك النوع من البكاء النادر، الذي تسببه كيمياء الفرح والدهشة، اختلاط الحلم بالواقع، لم تصدِّق أليس وهي تطل على النيل، أنها هنا، في أرض ثورة 25 يناير، كما لو أنها تتفرّج على سينما الهواء الطلق، راحت تمرّ أمام عينيها التظاهرات الحاشدة، معروضة على سطح الماء، وللحظة، كادت تهوي من الشرفة في الطابق الثالث عشر، لتلتحم بالمتظاهرين هاتفة: مش هنمشي، هوَّ يمشي.

كادت ترى رجال مخابرات العهد البائد يقتربون من الصبايا المتظاهرات، يرتدون الزّي المدني، ليوهموا العالم بأن المتظاهرين يتحرَّشون بالنساء.. كانت وكأنها تُعيد أرشيف الثورة، وهي تتفرّج على كل ما حصل، من شرفة الطابق الثالث عشر، حيث تحوّل نهر النيل إلى شاشة تعرض تلك الأيام المجيدة، لولا أن رنين الهاتف لوقفت لساعات تتأمل مستقبل مصر الذي تحلم به كما حلُم به شباب مصر وشاباتها، فدخلت لتتحدث إلى عليا، التي ستحضر بعد قليل، إلى حيث اتفقتا أن تلتقيا في المقهى الملاصق للنيل، في الطابق الأرضي للفندق. هنا ستشم أليس رائحة النيل أكثر، وتشهق وهي تدخن الشيشة المصرية بطعم التفاح، فتدوخ من اللذة والدهشة،

كل العالم يشتغل في هذه اللحظة على إدهاشها: عليا، النيل، صور الثوّار، حكايات البنات في الثورة، حضارة مصر العظيمة، وعودة (هاميس) التي لا تزال تهمس لها.

وبعد لقاء غامر بالمودّة والصداقة بين عليا وأليس اللتين تلتقيان وجهاً لوجه للمرّة الأولى، مع أنهما تعرفان بعضهما جيدًا بالصوت والصورة، فهما تتكلّمان كل يوم تقريباً بواسطة السكايب. ومع ذلك فوجئت عليا بذلك الجسد الرقيق لأليس، حتى كادت تبدو كطفلة. فكيف لهذه الفتاة التي تعيش في هذا الجسد الهشّ أن تمتلك كل تلك الحيوية، إذ كانت هي المحرِّك الأوّل للمجموعة، تقترح وتتابع وتنظّم علاقات مع جمعيات دوليّة.. وستكتشف أليس لاحقاً أن عليا كانت من أبرز الناشطات في ميدان العمل المدني وحتى السياسي في الجامعة، وأنها معروفة في كندا كلّها وتلقى الاحترام بسبب اهتماماتها بمساعدة اللاجئين ومساعدتهم في الحصول على أوراق الإقامة وعلى الحصول على عمل، وأيضاً بسبب مشاركتها ونشاطها في جمعيات بيئية كنديّة وحتى إبداء رأيها في الأمور السياسية لكندا..

وعندما سألتها عن سبب حماستها قالت لها:

- أنا حتى الآن عربية أولاً، ثمّ كندية ثانياً، ثم مواطنة عالمية ثالثاً. وقد تتبدّل أولويات هويّتي المتعدّدة لتصبح كندية أولاً إذا قرّرت الترشّح للانتخابات القادمة بعد عامين وهو أمر مطروح في الحزب الذي أشارك في نشاطاته، وهو أحد الأحزاب الصغيرة، أو المتوسّطة، التي تهتم بشؤون بيئية وبالعمل على مساعدة المهاجرين، وبالتصدّي لأي قانون يُشتمّ منه رائحة تمييز عنصري..

ثم توقفت عن الكلام وهي تبتسم لي ابتسامة تواضع وخجل وقالت:

– لقد تحدّثت عن نفسي كثيرًا. والآن أقترح أن نغادر فلدينا موعد مع بعض أصدقائي الذين أريد أن أعرِّفهم إليكِ، وهم ينتظروننا في مقهى زهرة البستان.

في زهرة البستان، لم تحتج أليس إلى خلع حذائها، كان التراب يتسلل إلى مسامات قدميها من الصندل المفتوح من أطرافه، وكأنها تنتعل بعض الخيوط الجلدية فقط، هناك تعرفت أليس إلى أصحاب عليا: مثقفون ونشطاء في هيئات وتجمّعات مختلفة.

أن تجلس في مقهى رصيف، بل على الأدق، في مقهى شارع، حيث لا أرصفة، إنما طاولات تصطف في الشارع، وعلى طرفيه، وتعبر السيارات والبشر بين الطاولات لقطع الطريق، هو أبعد ما يكون مقهى شارع. أن تجلس في ذلك المقهى، وترى الروائيين والشعراء والصحافيين على مقربة من طاولتك، فيأتي الروائي النحيل الأسمر الملفوح بشمس القاهرة الحادة، ليلقي السلام على الصبية القادمة من باريس، ثم تتلّفت تلك الصبية، فتحار وتعقد الدهشة عقلها، حين ترى رجل القانون ببدلته الرسمية الأنيقة، وحقيبة العمل والملفات الكثيرة، جالساً مع رجل عادي بملابس مختلفة، أو أن يجلس الروائي المصري القادم من آمستردام، مع الروائي المصري أيضاً القادم من جنيف، مع شباب مصريين من مختلف الطبقات والبيئات، هذا أمر جديد على أليس، التي فعلاً تعيش في أرض العجائب.

أما ياسر، صبي المقهى الوسيم، الذي لا يكف عن الابتسام، ولا يتذمّر وهو يلبي طلبات الزبائن الكثيرة، فقد كلّف نفسه بأن يحكي لأليس، بين ذهابه لتلبية الطلب، وعودته إلى طاولتها، عن حياته، عن أولاده الخمسة، وهو بنظرها لم يتجاوز سن الطفولة

بكثير. شاب في العشرينات على الأكثر، يروي لها قصص الثورة ومشاركته في التظاهرات، فتلتمع عيناه وتتحوَّلان إلى شاشة عرض ترى أليس فيها صور التظاهرات السلمية، وتمتزج مع تصوراتها عن ثورة مصر، تلك الثورة التي قدّمت نموذجاً جديداً لثورة لا تتخذ من العنف وسيلة.

ابتسامة ياسر، وطيبته الفائضة، لا يمكن أن تمت للعنف بصلة، لا مادياً ولا معنوياً، هذا الصعيدي العابق برائحة الأرض الندية، كأنه شجرة جمّيز متنقّلة، يدندن وهو يغيّر لها الفحم المشتعل، مبتسماً، فرحاً، يعلو صوته أحياناً حين ينفعل، فتتحول الدندنة إلى تظاهرة داخل المقهى، ليشاركه الحضور الدندنة، وتدخل أليس في الحكاية لتغني مع ياسر وباقي الزبائن، تعرّفت هناك على أشخاص كانت تعرفهم بالاسم، منهم الروائي مكاوي سعيد، الروائي جميل عطية إبراهيم، الروائي رؤوف مسعد، الناقد إيهاب الملاح، الروائي طارق إمام، الروائي أحمد عبد اللطيف، الصحافي سيد محمود،، الروائي المغرم بالمقاهي وحيد الطويلة، والحسناء الفرعونية الساحرة التي ستدخل لاحقاً في حكايات أليس، منى سلمان، وكثيرون لا تعرفهم بالأسماء، وتشعر بأنها التقت بهم في مكان ما، ربما شاهدتهم في التلفزيونات وعلى الانترنت، كانوا جميعاً يغنون مع ياسر الذي تحوّل من صبي المقهى، إلى قائد اوركسترا، يرفعون الصوت منشدين:

شيد قصورك ع المزارع ... من كدنا وعمل إدينا
والخمّارات جنب المصانع ... والسجن مطرح الجنينه
واطلق كلابك في الشوارع ... واقفل زنازينك علينا
ويقل نومنا في المضاجع ... أدي إحنا نمنا ما اشتهينا

واتقل علينا بالمواجع إحنا إتوجعنا واكتفينا
وعرفنا مين سبب جراحنا وعرفنا روحنا والتقينا
عمال وفلاحين وطلبة دقت ساعتنا وابتدينا
نسلك طريق ما لهش راجع والنصر قرّب من عنينا

في اليوم التالي، جالت أليس في شوارع القاهرة، بصحبة منى سلمان وعليا، وغرقت أكثر في الحكاية.

حدّثتها منى عن حملة (تمرد)، وكيف يجمع المصريون التواقيع، لإسقاط الإخوان. وراحت أليس تسجّل قصص المصريين والمصريات، والمواقف الطريفة التي تحصل معهم، مثلاً حين ينزل أحدهم أو إحداهن من السيارة وسط الزحام، ليجمع التواقيع، ويعود سريعاً إلى السيارة التي لم تتحرّك بعد..

مع منى، جلست أليس في مقهى البورصة، وهناك شملتها حماسة المصريين، الذين يتابعون ثورتهم ضد كل أشكال الاستبداد، من مبارك، إلى الإخوان، مروراً بالعسكر. هذه الروح الفرعونية التوّاقة إلى الحرية والسلام، الهائمة في الحب والجمال والابتكار. المصريون الذين احتفظوا حتى بأمواتهم حباً بالحياة وبالفن، فاخترعوا التحنيط.

مع منى، جالت أليس في شوارع القاهرة، والتقطت صور الكتابات على الجدران، وأدهشتها لوحات الغرافيتي، إبداع الثورة. وغاصت في حوار طويل مع ذلك الرجل المسن المتوقف في الساحة، قرب باعة الصحف والمجلات، الذي حوّل ظهره إلى لافتة مليئة بالعبارات، فكتب على كنزته من الخلف: أنا رئيس جمهورية نفسي.

كان الرجل العجوز، الذي حافظ على ظهره مستقيماً، حتى يتسنّى للعالم قراءة الشعارات الكثيرة التي خطّها على كنزته الخضراء، التي

استعملها كجدار متنقّل، يشرح لأليس لا مبالاته بالزعماء، ورفضه لكل زعيم يأتي ليحكم البلاد من رأسه هو، لا من رأس الشعب. لم يكن الرجل مثقفاً ليحدّثها عن الديمقراطية وحكم الشعوب، لكنه تحدّث عن قوة الشعب في الإطاحة بأي زعيم، لا يرضى عنه الشعب. كان يتحدث ضاحكاً، وكأنه خارج من نص مسرحي لبيكيت، لا مبالٍ بالخوف، لا يهمه ردّ العالم، يخترع تصوراته عن الحكم، ويحملها على ظهره، واثقاً من وجوده، مسجّلاً موقفه في وجه العالم.

من كان يتخيل حتى هذا الشكل الصغير من حرية التعبير في هذه البلاد، أن يحيا المرء حكايته الخاصة به، من دون تدخّل العسكر!

دارت أليس شوارع القاهرة مفتونة بتلك الكتابات والرسومات، هبط قلبها من الفرح، وهي تستعيد قسماً ميتاً من ذاكرة الطفولة، حين كانت تقرأ في كتب التاريخ، وتندهش أمام روعة الخط الهيروغليفي، تلك الرسومات للحيوانات والنباتات على جدران المعابد والمقابر، والتي كانت لغة التدوين.

كانت أليس، كغالبية الأطفال، مفتونة بالرسم على الجدران، ولم تكن لها أمٌّ تمنعها من ممارسة ذلك الشغف، لكنها كانت طفلة رقيقة وخجولة، وكانت لا تحبّ توسيخ الجدران، فلم تتمكن من تحقيق حلمها، الذي طمرته عميقاً، وظلّ ينتابها من وقت لآخر، كلما عبرت أمام جدار يحمل رسومات أو عبارات، أو كلما مرّت في المترو، وأثارت متعتها تلك العبارات الساخطة المتمرّدة، فتداعب طفولتها، ثم تنسى الأمر..

ما حصل في القاهرة، أمام تلك «الجداريات» لم يكن فقط إعجابها بفن الغرافيتي، بل بالدمج بين السخط الجماعي والطفولة المنفلتة من رقابة الكبار والصغار معاً والفن.

أمام (جدارية محمد محمود) في الشارع الذي حملت الجدارية اسمه، فُتنت أليس بصور النساء الكثيرات، المتجهات إلى الأمام، المقبلات على الحياة، والثورة.

وفي الشارع نفسه، رأت صورة سميرة إبراهيم تعلو الدبابة والعسكر وعبارة: (سميرة إبراهيم فوق العسكر).

لا للتحرش : البنت زي الولد- وشعارات غيرها دّونت على الجدران، لتنصر النساء الشريكات في الثورة.

أخذتها منى في جولة طويلة، ومن شارع لآخر، كانت كأنها تتنقّل من قاعة لأخرى في متحف كبير. تحولت شوارع القاهرة إلى صالات عرض لفنانين مغمورين من الشارع.

في مدينة نصر، رسم أحدهم صبية تحمل حمامة بيضاء بيد، وباليد الأخرى ترسم علامة النصر، وتحتشد اللوحة بالعيون والقلوب والأهرامات وكلمات عن السلام والحب.

في شارع قصر النيل، ضحكت أليس أمام عبارة: غمض عينك وارقص خفة ودلع، الدنيا هي الشابة وأنت الجدع.

في ماسبيرو كتبوا: عسكر لع.

في ميدان التحرير: الأفكار ضد الرصاص.

في باب اللوق: امسح، وأنا أرسم.

والكثير الكثير من ابتكارات الشعب المصري العاشق للفن والحرية والسلام.

كانت تلك الرسومات الملونة والكتابات تُشعرها بالأمان، بشكل غامض، وتمنحها طاقة إيجابية ضد الخوف والقلق والموت. وراحت تتساءل مع عليا، عَمَّ يمكنهما كمهتمتين بالفن تقديمه للعالم، لزيادة

تلك الطاقة، والتخفيف من العنف، لا سيما وقد تنامت موجات العنف السياسي من الحكومات التي ثارت شعوبها من أجل مطالب شرعية بسيطة...

انفلتت الكثير من التساؤلات بين عليا وأليس بداية، ثم مع باقي الصبايا المصريات الناشطات في الثورة، عن أهمية الفن وتنشيطه كفعل مقاومة ضد القتل والموت والإبادة.

تحدّثت عليا عن أهمية القراءة: لو أن الزعماء يقرأون الروايات لتغيّروا وتغيّرت مصائر بلادهم وشعوبهم. فالروايات ليست مجرد حكايات للتسلية، إنها قصص الشعوب وسيرهم. الروايات تفتح آفاق المخيلة وتوسّع احتمالات العيش وتطرح الحلول المتنوعة، تخلق الجمال والتواصل مع كائنات عاشت أو كائنات مُخترعة تشبهنا ونشبهها، الروايات تعمّق إنسانيتنا، وتخفّف وحشيتنا وميلنا غير الواعي إلى العنف، الروايات تهذّبنا.

وتحدّثت عن مثال شهرزاد، التي قاومت الموت بالحكايات، وأنقذتها الحكاية. نحن جميعاً حكايات، قالت عليا، وهزت أليس رأسها سعيدة بكلام عليا عن أهمية الرواية في حياة البشر، وأحسّت بقرب شديد من عليا، فالرواية هي حياتها، تخفّف عنها ثقل الوحدة وضغط الوجود.

في اليوم الثالث، اقتنعت أليس بفكرة مغادرة الفندق والالتحاق ببيت عليا الذي استأجرته لمدّة شهر. إذ لم تكن تمرّ على الفندق، إلاّ لتغيير ملابسها. بل كانت تُمضي النهار برفقة الصبايا غالباً، وتذهب مع عليا في آخر الليل، لمتابعة السهر في بيتها حتى الصباح، فتنام كل منهما على أريكة في الصالة من شدة الإرهاق، بملابسهما، فكأن الليل يدخل في النهار وبالعكس.

حين اصطحبتها عليا إلى «التكعيبة»، وبينما كانت عليا مستغرقة في تدخين الشيشة، قفزت أليس إلى الركن المقابل للمقهى، حيث محل بيع الشرقيات: سجاجيد وأقمشة وإكسسورات للبيت. اقتربت منها السيدة المسنّة وأشارت لها بيدها: خذي هذه السجادة، وضعيها على باب المقهى.

نظرت أليس في عينيّ المرأة، وشعرت بدوار خفيف:

ـ عن أي مقهى تتحدّثين؟

ـ مقهاكِ، أعني مقهاكنّ..

ـ لم أفهم..

ـ ستفهمين حين تعودين إلى باريس، ستصلك أوراق من أمك.

-لكن أمي ماتت منذ سنوات!

ـ أعرف، وستصلك الكثير من الأوراق، وستذهبين بها إلى المقهى.

ـ من أنتِ؟ هل تعرفينني؟

ـ طبعًا، ألست ابنة ساباتو؟

ـ كلا.. هناك خطأ ما من دون شك.

ـ أنت لا تعرفين كل شيء، لو كانت أبدون هنا، لروت لك الحكاية.

ـ أيّ حكاية؟ ومن هي أبدون؟

ـ أبدون المرأة التي تبيع عيون حورس، وتأتي إلى التكعيبة أحياناً لتكتب رواياتها.

ـ هي روائية؟ لكنني لم أسمع بها من قبل!

ـ اسألي والدك عنها.

ـ وما علاقة والدي بها؟

ـ تبسّمت، وأطلقت ضحكة خفيفة.

ـ لماذا تضحكين!

ـ اسألي والدك... وتعالي غداً، ربما تلتقين بأبدون.

عادت أليس إلى طاولة عليا مندهشة، وقد اشترت السجادة الصغيرة، كما نصحتها السيدة المسنة، وقد طُرِّزت عليها عين حورس بالخيوط الملوَّنة.

عادت في اليوم التالي، وسألت السيدة المسنّة عن أبدون، فقالت لها بإنها كانت هنا وغادرت للتو. في اليوم التالي، ذهبت أليس باكراً إلى المقهى وسألت عن أبدون، وأعلمتها السيدة ذاتها، أنها جاءت باكراً وغادرت للتو، فانفجرت أليس بالغضب:

ـ أنت تسخرين مني؟ هل بالصدفة تأتي هذه المخلوقة قبلي في كل مرة، وتغادر قبل وصولي، قولي إنك تخترعين الحكاية..

ـ تبسّمت، وأطلقت ضحكة خفيفة.

ـ لماذا تضحكين!

ـ اسألي والدك، وتعالي غداً، ربما تلتقين بأبدون، خذيها معكِ إلى المقهى هناك.

ـ أي مقهى؟

ـ مقهاكنّ، عند شهرزاد، عليكنّ رد الاعتبار لأبدون.

ارتعدت أليس لبرهة، منذ يوم واحد فقط، كانت تتحدّث مع عليا عن أهمية الحكايات وعن شهرزاد.

لم تفهم أليس من هي أبدون، ولم تلتق بها، ولم تعرف عن أي مقهى تتحدث هذه السيدة.

مع منى وريم ولينا وبعض النساء المصريات، دارت الحوارات العميقة حول علاقة النساء بالسلام..

راودت أليس أفكار كثيرة حول عمل النساء الفنانات ومساعيهنّ لأجل السلام.

تستطيع الفنانات خلق تيار مختلف ضد العنف في العالم.

كانت الكتابة ذات يوم، فعلاً وجودياً ضد العدم متأثرة بسارتر كانت تتحدّث، لكنها اليوم تذهب أبعد من هذا: إنها ضد الإبادة التي تمارسها الحروب.

الفن تكريس وجودي ضد العدم. لهذا فالمرأة الفنانة الخالقة، تمارس الخلق المتعدد، عبر الإنجاب البيولوجي، والفنّي معاً، فالإبداع يصرع الموت، يصرع العدم. الفن يصنع السلام، الجمال، الحق، يخلّد الوجود.

خططت النساء الثائرات ضد العنف والاستبداد بكل أشكاله، لورشات عمل متوالدة كخلايا صغيرة في الشوارع والأزقة والحارات، وفكّرن بتوسيع نشاطهنّ ليشمل العالم كلّه، في جميع أنحائه الحائرة والقلقة والمعذبة.

كانت الصبايا يشتغلن كنحلات وفراشات، تطوف بينهن هاميس وكليوباتره وإيزيس وعشتار وأفروديت..

أسسن، بشراكة الشباب، مجموعات للغناء، للرقص، لأمسيات الشعر في الهواء الطلق، لحلقات الرقص في الشوارع والمقاهي والساحات.

في الحسين، جلست أليس أمام مقهى الفيشاوي، تدخن الشيشة مع عليا، حين نهضت بغتة صوب المسجد، تلتقط الصور كأجنبية

مسحورة بالمكان، التقت قرب باب المسجد، بصبية فاتنة الجمال، تشبه صوفيا لورين في دور كليوباتره، ترسم الكحل الأسود حول عينيها بكثافة، فتبدوان كعصفورين أسودين دافئين ينبضان بحميمية ويلمعان فرحاً ونشوة. اقتربت أليس من الحسناء، ورأتها تحمل سلّة مليئة بالقلادات والأساور والأقراط. ابتسمت الصبية:

ـ خذي منها، ستنفعك من أجل المقهى.

ـ أيّ مقهى؟

ـ مقهاكنّ، هناك في باريس، حيث تصلك أوراق أمك..

ارتجفت أليس، وأحست بأنها تعيش مشهداً مكرراً، تتغير فقط بطلته أمامها:

ـ أنت تعرفين أمي؟ آه، أنت أبدون، حدّثتني عنك امرأة التكعيبة..

ـ هههههه بل هي أبدون.

ـ وأنت؟ ماذا تعملين؟ تبيعين عيون حورس؟

ـ نعم، في أوقات الفراغ، حين لا أروي.

ـ أنت تكتبين؟

ـ كلا، أنا أروي الحكايات فقط. انظري في عينيّ ترين حكاياتي.

في العين اليمنى لتلك الصبية الحسناء، رأت أليس صورة أمها غارقة في الكتب، تستلقي على بطنها على الأرض، وبجوارها أليس الصغيرة، تتلهّى بصفحات كتاب ملوّن، وفي العين اليسرى، رأت أليس مكاناً غامضاً، يشبه باب مقهى، يطلّ على نهر السين... ارتجفت أليس مجدداً، وقالت:

ـ أنت أبدون التي حدثتني عنك امرأة التكعيبة، لا يمكنني أن أُخطئك!

ـ ليس مهماً من أكون. أبدون أو هاميس أو كليوباترا أو شهرزاد، ليست الراوية هي الحقيقة. بل الرواية. الرواية أهم من الراوية. عليكِ يا ابنة الحكاية، كما اخترعتك أمك، وأنجبتك من رحم عاشق للروي، أن تكملي مسيرة الراويات. بالرواية يكون خلاص العالم. لن ينقذ هذا العالم من بلادته وعنفه وجفاف روحه إلا الرواية..

مدت أليس يدها إلى السلة، وأخرجت كمشة مما علق بها، أساور وأقراط وقلائد، وبينما فتحت حقيبة يدها لتخرج ثمن ما حصلت عليه، رفعت رأسها، لترى الحسناء السمراء قد أعطتها ظهرها وغابت بين زحام السياح وأبناء البلد. رفعت أليس صوتها: سيدتي، هيييه، أبدون، هاميس، كليوباترا، شهرزاااااد... لكن المرأة تابعت سيرها في الزحام، تاركة تلك الحفنة من عيون حورس في حقيبة أليس.

لم يكن قد مضى أسبوع على أليس في القاهرة، عندما فاتحت عليا برغبتها في العودة. ما عادت تطيق الابتعاد عن ذلك المقهى، فقد سيطرت عليها رغبة العودة لتعرف معنى تلك السجّادة وتلك الأساور. وقرّرت عليا أن تقطع رحلتها وتعود معها إلى باريس، خاصة وأن أليس صارت منذ فترة تعيش وحدها، إذ صار والدها يمضي معظم وقته في لندن. وقرّر أن أليس صارت امرأة يجب أن تعيش حياتها، وأنهت مرحلة الدراسة ويجب أن تستقلّ عنه، وأن يستقلّ هو أيضاً عنها، فقد كفاه ما عاناه وهو يكرّس كل وقته خارج العمل لتلك الابنة التي تشبه أمها إلى حد التطابق. وبقدر ما كانت أليس تذكّره بالمرأة الوحيدة التي أحبّها، ولم يستطيع نسيانها إذ تركت له بذرتها تنمو حوله فلا يخرج من الاحساس بألم الفَقد، فإن وجود أليس عدا عن كونها ابنته الوحيدة التي يحبها كثيراً، هي ثمرة ذلك الحبّ الذي ما زال يعيش فيه وفي أليس، لكنه رأى أن أوان الانفصال قد حلّ.

- 4 -

مقهى شهرزاد

عاد ويليام على وجه السرعة، ووصلت طائرته في منتصف الليل. لم يسمح لنفسه أن يرتاح من السفر الطويل، بل ظل جالساً أمام جثمان والده، الذي عاد به من أميركا إلى سوريا.

أما فريدا، فمع طلوع ضوء الصباح، وبدلاً من الذهاب إلى المقبرة، أخذت سيارتها، وانطلقت بها كأنها تقود طيارة إلى «الأرض الحمرا».

كان منزل حليم قد اختفى، وظهرت محله أرض زراعية واسعة، أزاحت كل البيوت الطينية من هناك، يملكها صاحب معمل السكر، القريب من القرية، والذي لم يكن موجوداً أيضاً من قبل، وتحوّلت المنطقة إلى زراعة الشمندر السكّري.

بحثت فريدا عن حليم، فلم يعرف أحد عنه شيئاً، ولا حتى عن أمه.

بحثت عن ظبية، وبكت كثيراً، وتألّمت عندما علمت أنها توفيت في بيروت أثناء الولادة، بعد أن وضعت بنتاً أخذها والدها، ورحل بها إلى باريس.

لم تمت لويز حين حاولت الانتحار، أنقذها فرانكو، وأُدخلت إلى المستشفى حيث أُنقذت وعاشت حتى وضعت حملها.

احتفى فرانكو بكتاب لويز، وأعلن في حفلة دعا إليها نخبة المجتمع الأدبي، عن شخصية فريدا الباشا، ولاقت لويز حفاوة، تأكدت أنها ليست فقط لأنها زوجة الروائي الناجح. وقد انقلبت كآبة فرانكو، وهو يعرف بأن لويز هي صاحبة الكتاب، إلى فرح وفخر، وللمرة الأولى، وقد عبّر عن هذا الشعور للويز. كانت سعادته بأن لويز صاحبة الكتاب، أكبر من سعادته فيما لو كان هو نفسه، مؤلف تلك الرواية.

«الكائن الوحيد الذي أحببتُه أكثر من نفسي، وتمنّيت له النجاح، أكثر مما أتمنى لي، هو أنتِ يا لويز»، قال لها هذه الكلمات وبارك نجاحها، وشجّعها على المتابعة، وأضاف مازحاً: لن أكتب بعد اليوم. لقد تحررتُ من وجع الكتابة. إن لويز أكثر موهبة مني، فلتحمل المسؤولية. ها أنا أسلّمها راية الرواية في العائلة. يكفينا روائي واحد.

كان سعيداً حقاً بموهبتها الطازجة، التي لم تتأثّر بالموضة ومتطلبات الناشرين والسوق. وكانت موهبة أصلية، خالية من الفذلكة وبهارات الوصفات التجارية. كما لو أن لويز واكتشافه بـ«حور العين» كان رحلة نحو الخلاص الروحي والنقاء والتحرّر من أسر الرغبة في أن يكون شخصاً مهماً، معترَفاً به، وتسلّط عليه الأضواء.

وجدت فريدا صناديق الرسائل التي كتبتها ظبية، وخبأتها في صناديق كتب ولوحات والدها، وضّبتها ورتّبتها، ومن دون أن تعود إلى البيت، قررت السفر مباشرة إلى باريس، باحثة عن ابنة ظبية.

لم يكن الوصول إلى زيد متاحاً، فقد غيّر أماكن سكنه، وكانت

أرقام هواتفه في اللائحة الحمراء، بحيث يتعذر الحصول عليها لدى شركات الاتصالات. حتى ويليام أضاع أثر زيد.

باع وليام منزل حور العين، وبيت المدينة في اللاذقية، وأرسل لأخته حصتها من إرث والدها. بعد أن أرسلت له توكيلاً عاماً للتصرف بالميراث، من دون أن تلتقِيه هي أو والدتها منذ تركت البلاد.

اشترت فريدا بيتاً صغيراً في باريس، قريباً من مونمارتر، في شارع أورشامب[1]، حيث كانت تقطن داليدا. وراحت تستعيد حلمها، بالرسم في ساحة الفنانين، في مونمارتر منارة الرسم، التي استقطبت أسماء كبيرة، كفان غوغ وبيكاسو وغيرهما. استعادت حلمها في العيش متشردة بورجوازية، تمضي نهارها في الرسم، لتقبض ثمن البورتريهات التي ترسمها للسياح، وتعود في آخر الليل إلى وحدتها الباريسية.

ثلاثون عاماً من المنفى المختار. من وقت لآخر، تُخرج رسائل ظبية وتقرأ فيها. فقدَت ظبية وفقدَت حليم. لم يبق في حياتها مَنْ تتمسك بالعيش حتى تراه، سوى أليس.

ثلاثون عاماً عاشتها في حداد لم ترتدي فيها فريدا الألوان. كانت تستعمل الألوان في لوحاتها فقط. أما ملابسها، فكانت جميعها من الألوان الثلاثة الثابتة: الأسود والفضي والكحلي. حتى إيشارباتها، وإكسسواراتها، كانت كلها من هذه الألوان الثلاثة وبتدرجاتها، ولم تسمح لنفسها، منذ مغادرتها سوريا، فاقدة حليمًا وظبية معاً (أو ديبة أو لويز)، بأن تضع قطعة ملونة على جسدها.

---

(1) Rue d'Orchampt

تركت فريدا اللوحة التي ترسمها، حين سمعت موسيقى شرقية تأتي من المكان، ثم تسمع بالعربية صوتاً جميلاً يغني: هالأسمر اللون، هالأسمراني. صفقت للصبية بعد أن انتهت من الغناء، وهي تحمل الأكورديون وتعزف وتغني، ومعها مجموعة صبايا، رحن يقدمن عرضاً مسرحياً صغيراً، بعد أن جذبن الجمهور، بصوت سيتا.

نادت سيتا أليس: أليس! فخفق قلب فريدا. وهي تقترب من صاحبة الاسم، كاد يغمى عليها من الدهشة، كما لو أن ظبية لم تمت، أو أنها كانت محفوظة في ثلاجة لثلاثين سنة، أو حنّطها فنان فرعوني ماهر.

أليس! صرخت فريدا وسط الضجيج على مدى صوتها الذي بدا كأنه يصدر عن قلب ملهوف. ما جعل الجميع يتجمدون من قوة الصراخ.استدارت أليس التي كانت على وشك الانصراف.

- أليس.أليس أنتِ أليس ابنة زيد؟

هزت أليس برأسها.

- ابنة زيد وظبية؟ أعني ديبة؟

هزت أليس برأسها أيضاً.

***

حققت فريدا حلم الصبايا في مكان يجمع طاقاتهن. الحلم الذي كان فردوساً مرسوماً في مخيلاتهن. نقلت الفردوس من رؤوس البنات السبع، إلى ذلك الركن الواسع في باريس، قريباً من الجسر التاسع المحاذي لنهر السين.

هنا، في حانة شهرزاد وجدت "فنانات من أجل السلام" ضالّتهن. حيث حوّلت فريدا المبنى القديم، إلى حانة تنتمي

بديكوراتها وزخرفاتها إلى العصر العباسي. فراحت تطلي الجدران برفقة البنات، وترسم عليها لوحاتها، تلك التي ترتكز أكثر على ثيمة الحيوانات الداخلية للبشر، لأنسنتها عبر مواجهتها، كما لو أننا نربّت عليها بلطف، لنطمئنها.

كما رسمت بورتريهات صبايا يرتدين ملابس صبايا الحانة القديمات، واختارت المفارش والسجاجيد والستائر والأضواء وألوان كؤوس الشراب والأراكيل.

أما في أوقات الفراغ، فكانت فريدا تطرّز أثوابها بالخرز الأبيض. إذ تحررت من ألوان الحداد، ولم تعد ترتدي إلا الأبيض، منذ عثورها على أليس ابنة ظبية، والتي تعاملت معها كما لو كانت ابنتها تماماً، وكأنها أنجبتها في اللحظة نفسها التي أنجبتها فيها ظبية وماتت.

أما شيراز، الحاصلة على دبلوم في الكيمياء، فكان اختراع ألوان الشراب من اختصاصها، وكذلك ابتداع الوصفات العجائبية لتبغ الأركيلة وخلطات نادرة.

عليا، وجدت مكانها، حيث تشتغل على المشهد بصرياً، ولكنها راحت تمارس مهارتها التي لا يمكن تفسيرها، في قراءة الوجه والعيون والكف فتصبح عرّافة لأليس. ثم تصبح عرّافة المحل، وينهال عليها الزبائن، والزبونات خاصة، فتؤلّف عالماً جديداً في فن التبصّر، وهو: اقرأ ذاتك. كانت تساعد زبائنها على إخراج ما في داخلهم، فتشاركهم القراءة: المستقبل موجود في داخلك، مدّ يدك إليه، وأدفعه أمامك، والحق به، تقول علوّش، أي عليا.

أما نازلي، التركية الفاتنة، ذات الشعر الطويل حتى الركبتين، كأنه شلال أسود، فكانت تتحرر من طاقاتها السلبية عبر الرقص، وتبثّ ذبذباتها الموجبة في الكون، حين تخلط إيقاعات جسدها

الراقص، الذي يصنع دوائر كهرطيسية من الطاقة الموحية والمُعدية لمن يراها. تخلط إيقاعها الجسدي مع الضوء المصمَّم من فريدا، بحيث ينسجم من حيث لونه ودرجته الضوئية، مع جسد نازلي، وتعرجاته، ومع إيقاع عود سيتا.

سيتا، العازفة الأرمنيّة المعروفة في بلاد الشام، في لبنان والعراق وسوريا وفلسطين والأردن، الأرمنية اللبنانية، والتي كان صوتها استدعاء للآلهة الساحرة، كأنها حين تغنّي، تجذب آلهة الأولمب من قمة جبالها الإغريقية، وكأنها تشدّ آلهة ميزوبوتاميا من جبال أرمينيا، حيث ينبع الرافدان، حتى جبال زاغروس، بل وعبوراً بجبل لالش، ومواصلة حتى جبال الأرز.

مليكة الأمازيغية كذلك، وجدت مكانها كمزينةَ للزبونات، السمراء ذات البشرة المائلة إلى البني، التي تفوح منها رائحة صحراء سيوه.

أما ياسمين، اليمنية الفائقة الجمال، كأنها أميرة خارجة من التاريخ، شجرة الدر، تقف على الباب، وتقود الزبائن، إلى غرف الملابس، ليعودوا إلى الماضي.

وأليس، شهرزاد، صاحبة الحكايا، وساردة الحانة. بئر لا ينضب من الحكايات التي تسلب لبّ السامع.

هؤلاء هنّ نساء هذا المكان حققن بتأسيسه أحلامهن ورسالتهن الأزلية التي يرسلنها عشوائياً، فتصيب من يرغب الوقوع في تأمين العالم.

" إحك حكايتك. ارسم لوحتك. أرقص رقصتك. قل كلمتك بطريقتك. أرسل رسالتك، ألقها في مكان ما. سيلتقطها أحد

ما، وتتغير حياته"، "ثمة في مكان ما، شخص ما، ينتظر إشارتك ليتحرك. ثمة حرب وعنف، وثمة من يحتاج لذبذبة تطلقها أنت، ليوقف القتل. ساهم بإرسال طاقتك في أمان العالم"، تلك بعض العبارات التي خطتها فريدا ولونتها بالضوء، في أرجاء المحل، مؤمنة بأن تلك العبارات نفسها، تمسّ كل مَن يقرأها. سيعمل بها وينقلها إلى غيره، حتى تصنع دوائر لا متناهية من طاقات حماية العالم. الفن وحده يحمي العالم.

***

انضمت آنييس إلى أليس في تأليف الحكايات وسردها. ومزّقت مخطوطاتها، التي كانت تحبس روحها في ورق له رائحة النفتلين، التي تستعملها أمها في الملابس.

لا يمكن تخزين الكلمات، سيصبح لها رائحة المشافي، لم تخلق الحكاية للتخزين في الورق، بل للسرد.

إن التدوين لعنة، تقول أليس.

بعد أن أنهت فريدا قراءة رسائل ديبة، أعطتها لأليس، ومنحتها حرية التصرف بها، فهي إرثها، وإن كانت موجهة لفريدا.

قرأت أليس الرسائل عشرات المرات، حفظتها عن ظهر قلب، ثم مزقتها. وخلطت النتف وعجنت الكلام، ثم نقعتها جميعًا في طست ماء، ورمتها من الشرفة نحو الحديقة الداخلية للبيت، فتناثرت روح الكلمات في الهواء وامتزجت بالتربة.

«هكذا تتحرر روح أمي»، قالت أليس مرتاحة.

كانت أليس تؤمن بالقصّة الشفوية، وأثرها الأقوى، وتكره التدوين: التدوين يعني الرغبة في النشر، يعني الاستجابة لمتطلبات

السوق، تحكّم الناشر، مزاج القارئ، سلطة الناقد، المال، الشهرة، الإعلام. كل هذا يعلّب الكتابة، يقتل تلقائيتها، يُخرجها من متعتها الأولية، السرد، ليأخذها إلى الاستعراض والتحكيم وقيود الآخر.

قتل النشر أمي، وغرّب أبي عن ذاته. التدوين يعني النشر، والنشر يعني تشويش الآخر، ودخوله حاجزاً بين الكاتب والكتابة، ويحرّف الفطرة. الكتابة فطرة، وتدوينها يحرّفها. الكتابة فطرة تحتاج إلى الاستمرار في فعل الكتابة في الرأس لا على الورق، ولا في الحواسيب. هكذا تعيش أليس قصصها اليومية وهي تؤلفها وتطرحها، من رأسها، للحضور مباشرة، كما كانت أمها، تحلب البقرة، ومن دون آلات، تأخذ الحليب إلى النار، ثم إلى الكوب.

مزّقت آنييس مخطوطاتها. خلطت القصاصات، عجنتها، نقعتها في طست ماء، أفرغت الطست في أكياس، أفرغتها في نهر السين، وشعرت بالراحة. تحرّرت من لعنة التدوين، وتفرّغت لنعيم السرد الشفوي.

وهكذا نثرت الروائيتان، أليس وآنييس بذور السرد، عبر الهواء وتراب الحديقة الفوّاح بالكلمات القادمة من حور العين وفي تكوينات نهر السين المائية والترابية. وهكذا يتوالد في العالم كل يوم، مئات الروايات، وتبدأ السرد عشرات الروائيات، اللواتي ربما لا يسمع بهن أحد، كتلك الأميركية الهندية، التي دخلت المقهى ذات ليلة، وطلبت أن تروي حكايتها، واكتشافها الكتابة، ونشوة الرواية.

اختراع النشوة

أرجو أن تعتبروني راما، مع أنه ليس اسمي. اسمي الحقيقي لم يعد مهماً، ففي الحكاية، الاسم الذي نختاره، هو الاسم الذي نحمله ويلتصق بنا.

لم أكن أعرف أن هذا ممكن من قبل. كنت أفعل هذا وحدي، إلى أن وقعت على عنوانكن، فاكتشفت أن ثمة من يشبهني ويفكّر مثلي، فقررت المجيء إليكن والانضمام إلى هذا المكان، للتحدّث عن علاقتي بالرواية.

وُلدت في الهند، وكنت طفلة سعيدة، يمتلئ رأسها بالحكايات. فقد كانت جدتي لأمي - يا إلهي، أيأتي السحر دوماً من جهة الأم- تتمتّع بسحر القدرة على الحكي. كنت أنام على الحكايات التي ترويها لي، كالكثير من الأطفال في العالم.

لكن الفرق بيني وبين كل أطفال العالم، أنني كنت أتابع القصة التي تبدأها جدّتي. وعندما لا تعجبني سيرة بعض الحكايات، لم أكن أنام، بل أدّعي النوم، وفور أن تغطّيني جدتي وتذهب إلى سريرها قربي، أستعيد الحكاية التي روتها، وأحكيها لنفسي في رأسي، مغيّرة في التفاصيل. أحكيها كما أرغب أنا.

وفي اليوم التالي، أو في الأيام التالية، حين أسمع جدتي، تروي الحكاية ذاتها لأحد أبناء أو بنات أخوالي أو خالاتي، كنت أوقف جدتي، لأصحح لها: ليس هكذا مامي، لم ترقص ساندريلا مع الأمير في تلك الحفلة، بل نظرت إليه حين أوقفته في الممر الضيق، وصوبت كل قوتها نحوه، فارتعش الأمير وخفق قلبه، وحين اقترب من ساندريلا، رأى وجهه في عينيها، رأى نفسه بعد حين. كان لساندريلا قدرة استعادة صورة من ينظر في عينيها، بعد سنوات من تلك اللحظة. كان الأمير يرى مستقبله بعد سنوات، فيخرج من اللحظة إلى الزمن القادم.

كانت جدتي تتركني أروي، وتضحك قائلة: أنت تجيدين سرد الحكاية وتتقنين خلق الإثارة والمتعة.

كان يزعجني في حكاية ساندريلا، أن حذاءها المسحور، يتحول

إلى حيوان، والعربة تصبح يقطينة. حين ذهب الأمير في اليوم التالي للبحث عن حبيبته، كان ينظر في عيون بنات المدينة، ليرى وجهه القادم، وكلما رأى وجهه كما لو أنه ينظر في المرآة، قال: ليست هي، عيناها ترسمان الزمن القادم.

وهكذا، كنت أبدّل كل القصص التي أسمعها، وأقرأها: الروايات، الأفلام، الحكايات، القصص التي تحدث حولي.

كانت أمي مهووسة بالدقة، وأنا، على عكسها مهووسة، بالفوضى، وتبديل محل الأشياء. وحين سألني ذلك الشيخ الذي التقيته في منزل صديق للعائلة: ماذا تريدين أن تصبحي حين تكبرين؟ كنت أجيبه: سأغيّر العالم. وكان الجميع يضحك من إجابتي.

أمي التي تعمل قاضية في محكمة الجنايات، تعاني من فقر المخيلة، وتعتبر المخيلة انفصالاً عن الواقع. وكذلك أبي، المصرفي الذي يقضي يومه بين أسعار العملات، ومراقبة حركة البورصة. كانا واقعيين إلى درجة الضجر، وكأن العالم حولهما مرسوم بدقة، لا يمكن الخروج عن مساره.

أمضيت طفولتي، بعد مغادرتنا الهند إلى نيويورك، في التحدث إلى دُماي الكثيرة. كانت أقربهن إلي كيران وسميتها باسم جدتي التي عرفت بعدها أنها ماتت، ولم أكن أفهم الموت.

أعتقد أن أمي استعملت مخيلتها مرة واحدة، حين قالت إن جدتي ذهبت تزور جدي في السماء، وستعود حين أصبح طبيبة ناجحة.

كنت أجلس مع كيران في الطابق الخامس والعشرين، في بيتنا نراقب حركة الشارع ونتحدث، أنا ودميتي، عن العالم. كنا نطلق الأسماء على الأشخاص الذين نراهم من فوق. بائع الورد، كنا نسميه سودار، وكنا

نؤلف له حياة كاملة. نحكي عن بيته، زوجته السمينة الشرسة التي تسبب له هذه الكآبة والتجهم في وجهه، وعن أولاده الخمسة.

نعم، كنت أؤلف حياة الناس الذين أراهم من الشرفة، وفي الليل، في السرير، بعد أن تغادرني أمي، متمنية لي ليلة سعيدة، أتابع قصص أولئك الأشخاص، وأذهب إلى بيوتهم، لأتحدث عن الشجار العنيف الذي دار بين بائع الورد وزوجته، التي ضربته على رأسه بزجاجة النبيذ ففقد الوعي.

قلت لأمي في الصباح وأنا أغسل وجهي: انتفخ وجه بائع الورد من الزجاجة، وربما سيموت اليوم.

نظرت أمي إليّ بقلق، تلك النظرة التي أفهمها، والتي تعني دوماً أن عليّ مراجعة طبيب نفسي لأتخلص من حكايات الناس المزيفة، التي أخترعها.

في ذلك اليوم، لم يفتح محل الورد. قرأت إعلان الوفاة على باب المحل، بينما كنا نمرّ قاطعات الشارع، نحو المرأب، حيث تركن أمي سيارتها.

ارتجفت أمي، وقررت يومها أن تأخذني إلى الطبيب.

قال الطبيب إنني أعاني من إحدى حالات التوحّد النادرة، إذ أعيش في عالم خاص بي، أعاشر فيه أشخاصاً غير موجودين، وكأنني في عالم منفصل عن هذا العالم، أحيا فيه وحدي.

كانت أمي تخاف من روح جدتي.

ماتت جدتي بسبب المخيلة، هكذا قالت أمي وزجرتني.

حاولت أمي زجر مخيلتي والقضاء على الأشخاص الذين يعيشون معي من دون موافقتها.

سجلتني أمي في عدة نشاطات تستلزم الطاقة الجسدية، وترهق المخيلة. أتمرن بعد الدراسة، على السباحة وقيادة العجلة الهوائية والرقص الكلاسيكي والباليه. كانت أمي تحاول خنق مخيلتي، بإرهاق جسدي، موقنة أن المخيلة تنشط مع استرخاء الجسد.

حين أعود إلى البيت آخر النهار وأنا أكاد أموت من التعب، بل وأنام في الطريق. أتناول عشائي، وأتفرج لنصف ساعة على التلفزيون ثم أذهب إلى النوم. كانت أمي سعيدة، وكنت أنا تعيسة أشعر بافتقاد قصصي.

«ماذا ستفعلين في إجازة الصيف؟»، سألتني أمي. «سأبقى في البيت، مع كيران، وسنروي القصص»، أجبتها، فجحظت عيناها من الخوف.

كانت جدتي تخاطب كل ما حولها. كنت أراقبها وهي تستيقظ، وغالباً ما كنت أنام في غرفتها في إجازة الصيف، وأفيق قبلها لأراها حين تستيقظ. تتصرّف وكأنها محاطة بالعالم.

تبتسم لي، تضع يدها على وجهي وتقرصني بلطف: استيقظت يا يقطينتي! كانت تسميني هكذا، ثم تقبّلني وتنهض قائلة: هيا، سنعدّ حليباً ساخناً وخبزاً شهياً وبعض البيض والعسل. أهبط من السرير وألحق بها نحو المطبخ حافية، فجدتي تسير حافية في البيت، وكأنها تمتحن درجة نظافته بتلك الطريقة. وكانت تشرح لي أهمية أن تلاصق بشرة الجلد الأشياء، وخاصة الأرض. لجدتي مفاهيم خاصة في العلاقة مع الأشياء، كانت تحكي معها، فمثلاً تشعل النار قائلة: مرحبًا بك أيها الفرن، تسمح لي، سأشعلك قليلاً لتسخين الحليب! لقد كانت جدتي تتصرف وكأن كل من حولها، مثلها.

تنظر إليَّ مبتسمة وتشرح: إنهم يسمعوننا! لم أكن أفهم عمن تتحدّث.

بعد أن تحضّر لي جدتي الحليب، والبيض لاحقاً وتتركه لحظات ليبرد قليلاً، ويصبح بإمكاني تناوله، تدخل الغرفة، تربت على المخدة بلطف «يا مخدتي الطرية، كم أحبك»، ثم تمد شرشف السرير واللحاف متابعة الثرثرة معهما.

عندما تفتح النافذة تقول: «صباح الخير أيتها الحياة!»، ولا تتردّد في إلقاء التحية على عصفور عابر أو فراشة.

على مفرش طاولة الطعام، تفرش جدتي حكاياتها الصباحية، تحدّثني عن المزارعين ومربي الأبقار وحكاية الحليب، كيف تشكّل من العشب الأخضر الذي أكلته البقرة المرحة ثم خرج من ضرعها، بيدي الفلاحة الجميلة، حتى وصلني، وتشرح لي كل القيم التي تأتيني عبر الحليب: الخضار يعني الخصوبة، البقرة تعني العطاء، الحلب يعني العمل. وهذه الأشياء مجتمعة تعني الحياة.

تعلّمت من جدتي، ما لم يتمكن العلم من نزعه من داخلي. كنت أعرف بالعقل، أن الأشياء لا عقل لها ولا روح، لكن هذه المعرفة، لم تخترقني بعمق. في أعماقي، كنت مسكونة بطبقات من عوالم لا يفسّرها العقل. وفي الحقيقة، إن تفسيرات العقل ليست ممتعة دوماً.

لهذا استسلمت لعالمي الداخلي. كان ملاذي الخاص، وعشت ما يشبه الفصام، بين عملي بلا روح، وروحي المعطوبة في داخلي، والتي كانت كائناً غير شرعي، يتحرّك في الظلمة، وبصمت.

حين التقيت أرافيند، خفقت روحي له.

عادة يقال خفق قلبي، إلا أن ما حدث مع أرافيند أمر آخر.

حين حضرت حفلته الموسيقية، وما إن بدأ يعزف «بحيرة البجع»، حتى تحرّكت روحي وصعدت من ملجأي الداخلي، وتجولت في الصالة.

كأنني جنية ساحرة ومسحورة معاً.

في نيويورك، المدينة المقيتة التي أكرهها، حيث البنايات العالية وأجهزة صرف المال الأوتوماتيكية والمترو وكل شيء يحول الإنسان إلى آلة. حيث لا يرى أحد، روح الآخر، ولا ينظر أحد طويلاً في عينيك ليهبط إلى روحك.

حرّك عزف أرافيند روحي التي لا تتحرّك إلا معي.

للمرة الأولى، يحدث هذا. للمرّة الأولى تستجيب روحي لكائن آخر، في الواقع وليس في الحكايات

أنا التي أمضيت سنوات حياتي منفصمة. أعيش شخصية لا يعرفها غيري. كلما انعزلت عن الآخرين وجلست وحدي، أو حتى بينهم، أغمض عينيَّ وأمارس خديعة حياتي الأخرى، الحقيقية، لأتجوّل في الغابات مع جدتي، وأتحدث مع العصافير والفراشات والقطط الشاردة والنمل، ممسوسة بعوالم أليس في بلاد العجائب. طفلة لم تكبر. يراها الآخرون امرأة عاقلة، وأنا أستمد منها القوة لأعيش. تلك الطفلة التي تعيش في قبو روحي، تحرّكت وخرجت في الصالة، حيث يعزف أرافيند بحيرة البجع.

لم أغلق عينيّ. فهذا يحدث في الضوء، وبوجود مئات الحاضرين الحفلة. تخرج طفلتي، تقفز بين الحاضرين كفراشة أو عصفور. تدخل في ثنايا ملابسهم، تتعرف إلى روائح عطرهم، تقرأ أفكارهم.

ساعة من الموسيقى، وساعة موازية من العيش المختلف، طارت فراشتي، طفلتي اللامرئية، روحي الحبيسة، وتسللت إلى جسد أرافيند. أحسست به يرتعش، وارتعشت. شممت رائحة ذكورته عن بعد. وبغتة، أحسست بلذة لم أعرفها من قبل، أوصلتني المتعة إلى أورغازم من نوع مختلف.

حين وقفت أمام أرافيند في اليوم التالي، بعد أن حصلت على رقمه واتصلت به وطلبت لقاءه. حين صافحته، ارتعشت مجدداً، تيار مباغت من تواطؤ جنسي ومعرفي وروحي. أحسسنا بسرعة أننا نعرف بعضنا من قبل، وتأكدت من رائحته ذاتها التي وصلتني في الحفلة، وأنا أقترب منه، وأحدّثه عن قرب.

كما يتوقّع الجميع، تزوّجنا وفرح، غير مصدّق، بحكاياتي.

تحرّرت روحي السجينة مع أرافيند. أخبرته بكل عوالمي، وبكى!

بكى أرافيند. قال لي: إلا أنني يا راما - طلبت منه أن يناديني بهذا الاسم-، لست كما تتوقّعين وتتصوّرين. أنا رجل لا أحلم كثيراً، مثلي مثل الجميع. الموسيقى بالنسبة لي لم تكن اختياري أنا الشخصي. كنت أحب أن أصبح رائد فضاء. أمي أحبت الموسيقى وفرضتها عليّ، وحين أتقنت العزف، كانت تلك وسيلتي لكسب عيشي. إنها أداة للعيش وليست للحلم.

ومع هذا تزوجنا. آمنت أننا سنتقاسم تلك البحيرة العميقة الخاصة بروحينا. سآخذه معي في حكاياتي، وسأكف عن روي القصص لكيران.

يا للسأم!

ملّ أرافيند سريعاً، ومرة قال لي غاضباً وقد أسرف في الشرب، فظهرت حقيقة تفكيره نحوي:

تزوّجتك لأنك امرأة جميلة ولأنني اشتهيتك منذ اللحظة الأولى التي وقفت فيها أمامي، وليس من أجل هذا الهراء الذي تحْيَيْنَه. عليكِ فعلاً مراجعة طبيب نفسي.

وانقطع الحلم!

وعدت منكسرة إلى كيران.

كنت قد خبأتها في صندوق ألعابي. عدت إليها، وتابعت انفصالي عن العالم.

طفلة كبيرة. أخدعهم بجسدي الناضج الأنثوي. وحين أبتعد عنهم، أستردّ حقيقتي، وأسافر في رحلاتي الداخلية الخاصة بي.

كنت أتفرج مع أرافيند على التلفزيون، ونذهب إلى السينما أحياناً، لكنني أغيّر ما أراه، أبدّل الحكاية التي أشاهدها. وفي الروايات التي أقرأها، كنت أفعل الشيء نفسه.

ستضحكون عليّ كثيراً، وربما تحزنون، لو عرفتم حجم الصفحات التي كتبتها، وأنا أعيد تأليف روايات الآخرين، ثم أرميها في الزبالة، خشية من أمي وأرافيند، اللذين أصرّا على حاجتي للطب النفسي.

بل حتى أرافيند استشار أحد أصدقائه النفسيين، الذي رفضت الذهاب إليه، وأخبره بأن الحكاية متعلّقة بارتباطي بأبي، وأنني أرفض أن أكبر، لأبقى عشيقته الإلكتروية، سليلة إلكترا، يا للخراء!

إلا أنني راجعت طبيبة مختصة بالمشاكل الجنسية، لأحدّثها عن برودي الجنسي، وعدم وصولي للمتعة مع شريكي. وحين تطوّر الحديث بيننا وسألتني عن كيفية حصولي على النشوة، جحظت عيناها وقالت لي: من الأفضل استشارة مختص نفسي!

قلت للطبيبة الجنسية إن اللحظات التي أشعر بها بنشوة تشبه الأورغازم، تتحقّق فقط حين أروي.

وعندما حاولت أن أفصّل لها، رفضت، لأن هذا لم يكن من اختصاصها.

وصلنا إلى جدار مسدود، أرافيند وأنا. كان مؤمناً بأن تعلّقي بكائنات

وعوالم خيالية، يدعوها هو وهمية، هو السبب في عدم استجابتي الجنسية. وكنت أحاول أن أفسر له، أن عدم استعمال المخيلة، هو السبب.

انفصلنا.

عجز أرافيند عن إيصالي إلى النشوة، وكان هذا يجرح ذكورته.

إلا أنني اخترعت النشوة من دون أن يمسّني أحد، أو حتى لو مسّني. كنت أصل إلى اللذة عبر رأسي.

الحكايات الممتعة التي كنت أتصورها، تحقق لي نشوة خاصة، أمتع من الأورغازم، الذي شعرت به لمرة واحدة في الحفلة الموسيقية، حين شممت رائحة ذكورة أرافيند، بين مئات الروائح.

انفصلنا، ونصحني بمراجعة تاريخي الطفولي، واستذكار تفاصيلي مع أبي.

- أنت ترفضين أي رجل آخر غيره متمسكة بطفولتك التي كانت شريعتك الوحيدة للجلوس في حضنه وتقبيله واللعب بشعر صدره. تخافين أن تكبري، فتخوني الرجل الأول في حياتك، والدك.

كان كلامه كما لو أنه صفعني، هذا الموسيقي الأبله، فاقد المخيلة. اللعنة عليك، وعلى أبي.

تابعت خداعي للعالم، وما دخل العالم في رأسي. إنها سعادتي: الحكايات التي أرويها لكيران، والروايات التي أعيد تأليفها، وأفلام السينما، التي أعيد ترتيب أحداثها. كنت ورشة روائية خاصة، تعيد إنتاج الروايات المنشورة والمقروءة. ولم أنتبه يوماً، إلى إمكانية تأليف الروايات بنفسي، حتى اكتشفت هذا المقهى.

من حسن حظي أنني أعرف اللغة الفرنسية. عليّ أن أشكر أمي التي

حاولت إشغالي بتعلم أشياء كثيرة، لتبعدني عن الأوهام القاتلة كما تصفها.

عبر اللغة الفرنسية اكتشفت موقع مقهى شهرزاد على الانترنت، واكتشفت الكتابة.

لم أعد أحتاج للاشتغال على قصة قديمة، أعيد تصحيحها وقصّها. بل تعلمت أن أصنع قصتي.

عبر الكتابة، تحررت أعماقي، وخرجت إلى الضوء، وعبر الكتابة، كتابتي، لا كتابة غيري، امتلكت أعماقي المنبوذة، شرعية الضوء، والخروج إلى الملأ.

انتهت

باريس 3 أيلول 2013

الفهرس

الرواية الأولى : جلد الحيّة 11

1 - أجلب العالم إلى غرفتي 14

2 - صديقتي تؤلف القصص 80

الرواية الثانية: حور العين 91

1 - وهم الشهرة 93

2 - الحياة الهانئة 97

3 - حور العين 113

4 - الحياة المؤجلة، الحياة المستعارة 122

الرواية الثالثة: مقهى شهرزاد 133

1 - لدى شهرزاد Chez Chahrazad 135

2 - خمر التفكيك، خمر التثبيت 140

3 - فنانات من أجل السلام 155

4 - مقهى شهرزاد 173

الراويات

مها حسن

روائية سورية مقيمة في فرنسا منذ سنة 2004، صدرت لها ست روايات، الأولى (اللامتناهي ـ سيرة الآخر) سنة 1995 في سوريا. وصلت روايتها (حبل سري) الصادرة عن دار رياض الريّس في لبنان إلى اللائحة الطويلة لجائزة بوكر للرواية العربية. تُرجمت فصول من رواياتها إلى الفرنسية والانجليزية.

عدت ثلاثين سنة إلى الوراء. وعلى أنغام العود جلست مكان الحكواتية، ورويت قصة بدت غريبة لغيري، وأنا أحكي عن البنت أنييس، التي يرميها والدها في كل يوم في الغابة البعيدة، وتُمضي ليلتها، باحثة عن طريق البيت، وفي كل ليلة تمرّ بأخطار مختلفة. وفي كل ليلة تصل إلى البيت مدماة محطّمة من التعب، لتعاود، بطريقة سيزيفية عمياء، العودة من الغابة، في كل ليلة.

كنت أتحدث عن أنييس التي هي أنا. ولكنني أروي لا أشرح، أشهق كما رأيت الحكواتية تفعل. أنفعل، أرفع صوتي، أخفضه، أقلد صوت الريح، أصوات الذئاب.

لوحة الغلاف: نور الدين أمين

ISBN 978-9938-886-44-3

9 789938 886443

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ القاهرة ـ تونس